جمعية أولي العزم الدينية
لجنة الدعوة و التراث

اسرار القران

الجزء التاسع

الامام ابى العزائم

تفسير اسرار القران
الجزء التاسع

قوله تعالى : **"قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ"**(88).

قوله تعالى : **"قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ"**(89).

يخبرنا ربنا سبحانه عن قول المستكبرين من قوم شعيب له عليه السلام لأن **"الْمَلَأُ"** هم أكابر القوم الذين استكبروا عن الإيمان بالله تعالى وكذبوا شعيبا ، وقالوا **"لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا"** فسألهم شعيب مستنكرا **"قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ"** أي كارهين الخروج من القرية مع ما تؤذننا به إلي الإسلام رغبة فى إسعادكم وحرصا عليكم من أن ينالكم غضب من ربكم كما وقع بالأمم قبلكم الذين كفروا بربهم وكذبوا أنبياءهم.

فما قالوا له **"أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا"** كأنهم خيروهم بين أمرين أما إخراجهم من قريتهم وأما عودتهم إلى ملة الضلال والكفر ، فقال لهم شعيب كما أخبرنا الله عنه بقوله تعالى **"قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا"**.

أي قد اختلقنا وابتدعنا على الله كذبا . **"إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ"** وقد أتي بأن هنا لإفادة امتناع العودة ، لأن "أن" تأتي بمعني الشك والتقليل ولكنها هنا تفيد الامتناع بدليل ما أستطرد به من قوله **"بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا"**.

وهذه الآية الشريفة تدل على أن شعيبا عليه السلام كان يتكلم عمن معه من المؤمنين الذين سبق لهم الكفر ، قبل أن يؤمنوا ، وهم الذين يصح أن تقع منهم العودة إلى ملتهم ، أما شعيب فلم يكفر أبدا فإنه قبل البعثة كان من أهل الفطرة مع قومه وهو أول من آمن بالله لأنه رسولهم من عند الله ولم يسبق له كفر حتى يعود من الإيمان إلى الكفر ، وفى قوله تعالى نجانا الله منها بالنسبة لشعيب عليه السلام ـ أي لم يقدر الله له كفرا ـ وأما بالنسبة لمن آمن معه فإن الله نجاهم به من الكفر ، وكيف يقبل الإيمان رجل ويهش له قلبه ويبش ويرجع إلى الكفر ولو قطع بالسيف أربا ن ذلك ما لا يكون فإن القلب إذا أنعقد على الإيمان ، وقامت الدلائل الحقة على حقيقة التوحيد ، ولاحت له الآيات فى المكونات دالة على تفريد الله بالإيجاد والإمداد ، استحال على العبد العودة إلى الكفر ، لأن عقدة الإيمان لا يقوى على حلها مخلوق.

أما قوله تعالى **"مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ"** فهو خبر من الله عن قول شعيب عليه السلام لقومه ينفى به عن نفسه وعن الذين آمنوا معه من قومه العودة في الكفر بعد نجاة الله لهم منه ، وهذه الآية الشريفة تدل على استحالة العودة إذا نحن فسرنا "يشاء" بمعني يحب فإن الله لا يأمر بالكفر ولا يحبه . كما تدل على أن شعيبا عبد أدبه الله بما علمه من الحق المطلق العلي ، وتكون "يشاء" بمعني يريد ، بما يعني قول شعيب . أني عبد لرب قادر حكيم مطلق فى تقديره وإرادته ، فإن سبق فى علمه أعادتنا فى ملتكم أعادنا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم **"وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا"** أي وسع علم ربنا كل شئ من الأزل إلى الأبد ، فإنه لا يعلم الغيب أحد إلا هو سبحانه

وإنما أنا عبد ورسول مكلف بأن أبلغكم ما أوحي إلي ، وإني أطمع أن يهديكم هداية الإحسان بعد أن هداكم على يدي هداية البيان ولا علم عندي بما قدره الله لي ولكم فى سابق علمه الأزلي.
"عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا" أي أننا توكلنا فى دفع عنادكم وأذيتكم لنا مع تحملنا فى سبيل دعوتكم إليه سبحانه فادح المصائب فأنا عليه توكلنا فى كل ذلك . **"رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ"** أي ربنا أحكم بيننا وبين قومنا بالحق الذى أنت أهله ، فإن كنت قدرت سبحانك لهم الهداية فاكرمنا بهدايتهم ، وأن كنت قدرت لهم الكفر بك سبحانك فاحفظنا من شرورهم وانصرنا عليهم ، فأن معنى "فتح" عند أهل صنعاء "حكم" والقاضي يسمونه فتاح . **"رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا"** أي أقض واحكم **"وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ"** أن بيننا وبين الكافرين من قومنا "بالحق" إشارة إلى كمال يقينه أنه عبد الله ورسوله ، **"وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ"** أي وأنت خير الحاكمين بما تشاء أن تحكم به عدلا وانتقاما أو مغفرة ورحمة وفضلا ، فأنك سبحانك تحكم فى ملكك بما قدرته أزلا ، والحاكمون غيرك يحكمون بالعصمة فى غير ملكهم وهم الرسل وإبدالهم عليهم السلام ، أو يحكمون بالهوى والتحريض وهم أهل الكفر والنفاق ومرتكبوا معاصيك ، فأنت تنزهت وتقدست خير الحاكمين.
قوله تعالى : **"وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ"**(90).
تقدم الكلام على معنى الملأ والكفر ، "وقال" هنا استئناف ، وهذه الآية الشريفة أثبتت أن قوم شعيب عليه السلام ارتكبوا الكفر بالله تعالى ، والتكذيب بشعيب عليه السلام ، ومحاربته هو ومن معه ، ثم إغراء قومهم على الوقوع فى الكفر معهم وعلى الاعتداء على شعيب وعلى أهل الإيمان معه فاستحقوا بالوقوع فى تلك المظالم الكثيرة سرعة العقوبة.
ومعني هذه الآية أن مردة الكافرين من قوم شعيب صدوا الناس عن الإيمان به بقولهم لهم **"لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا"** بتوكيد الجملة بلام القسم التى تفيد خسرانهم فى الدنيا بإتباعهم لشعيب ، أما خسرانهم فى الدنيا فلأن الملأ من مردتهم يحاربون عنادا ، ويزيد على ذلك أنهم يمتنعون عن سلب أموال الناس فلا يطففون الكيل والميزان وهو خسران ، وأما خسرانهم فى الآخرة فلاعتقاد هؤلاء المردة من كفارهم أن شعيبا كاذب فى دعواه ، فلم يبق بعد أن قامت الحجة على أنهم سجل عليهم القضاء الكفر والعناد وظلم الخلق ، إلا أن تباغتهم النقمة فتستأصلهم.
قوله تعالى : **"فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ"**(91).
أي فاصبحوا جاثمين على ركبهم موتي مما نزل بهم من عاجل عقوبة الله تعالى.
قوله تعالى : **"الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ"**(92).
يخبرنا ربنا جل جلاله أن الذين كذبوا شعيبا أخذتهم الرجعة أخذ عزيز مقتدر فهلكوا جميعا ودمرت بيوتهم حتى أصبحت بلادهم كأنها لم تسكن من قبل ، وكأنهم لم **"يَغْنَوْا فِيهَا"** أي لم يقيموا بها فى رفاهة وغني مما ألم بهم فاستأصلهم عن آخرهم ، وهكذا كل مغرور بمال أو عافية أو جاه أو ملك أو أولاد أو أقارب إذا نزل به موت ذهب ما كان مغرورا به ، وصار كأنه لم يكن له شئ من ذلك يذكر ، ولم يبق له إلا ما قدمته يداه من التقوى أو يبقي عليه ما جنته يداه من المعاصي ، وشتان بين من ظلم نفسه بكفره بالله وبتكذيبه أنبياءه فصار كان لم يغن فى بلده مما آلم به من فادح الخطب وبين من تتلقاه الملائكة عند موته بالروح والريحان والبشائر فيتنقل من دار الفناء والبلاء والعناء والضيق والأمراض إلى دار النعيم فى جوار رب العالمين حتى يكون فى الفردوس الأعلى بما فاز من البهجة والحبور كأنه لم ير الدنيا بعينه.

"الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ" هذه الآية خبر من الله تعالى عما أصاب قوم شعيب بتكذيبهم أياه ، وقد بينت لك معني قوله **"كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا"** ، والمعني هنا يعنى جل جلاله الذين كذبوا شعيبا أهلكهم الله بالظلمة كما قد تقدم فأخذوا عقوبتهم فيها ، وياليت تلك العقوبة كانت من العقوبات الجوابر ولكنها من العقوبات الزواجر ، فأهلكهم الله انتقاما منهم فى الدنيا وزجرا لغيرهم فيها وحرمهم فى الآخرة مما كان ينالهم من النعيم المقيم فى جنات عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين فى البقاء الأبدي والحبور السرمدي ، ومع حرمانهم من هذا فإنهم خسروا أنفسهم بالخلود فى نار جهنم بحرمانهم من عفو الله ومغفرته بسبب كفرهم وصدهم عن سبيل الله وتطفيفهم المكيال والميزان ، وهذا الخبر من الله تعالى ذكرى وعبرة لقوم يؤمنون وحجة على أهل النفوس العنادية الذين ضلوا وأضلوا.

قوله تعالى : **"فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ"**(93).

هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى عن شعيب عندما رأي بوادر الانتقام تحل بمن أنذرهم فلم يقبلوا ، فقال لهم وهو منصرف عنهم يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ، أي تلوت عليكم ما أوحاه إلى ربي من أمركم بعبادة الله وحدة ، ومن العدل فى تجاراتكم بإيفاء الكيل والميزان ونهيكم عن الإفساد فى الأرض بعد إصلاحها . قوله تعالى :"ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين" "النصح" فى اللغة هو رتق الفتق ، واللغة الفصحى أن يتعدى باللام ، ونصح له أي بين له ما به صلاح حاله وماله ، ونصحه الذى نصحه لهم هو ما أمرهم به ونهاهم عنه مما به نيل السعادتين.

وقوله **"فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ"** أي فكيف أحزن على قوم كفروا بالله بعد أن قامت الحجة عليهم ووضحت لهم المحجة ، لأن أمثالهم أقاموا الحجة أن نفوسهم صيغت من أردا جواهر النفوس فلا يعقلون عن الله أمرا ولا نهيا ،وفى هذه الآيات الشريفة عبرة لأهل الإيمان وتبصرة لهم وتشنيع وتهديد لأهل الكفر بالله تعالى لتقوم الحجة عليهم وليس بعد الذكرى إلا الانتقام.

قوله تعالى : **"وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ"**(94).

لما أن بين الله تعالى فى تلك الآيات ما ألم بالأمم من الهلاك والدمار قست قلوب كفار قريش وقالوا أن الأنبياء شؤم على قومهم فبين الله حكمة ذلك ، والقرية هى ما يجتمع فيها الأنبياء وإتباعهم ، والمدينة ما يجتمع فيها جموع كثيرة **"إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا"** ، هنا حذف وأضمار ، والمعني وما أرسلنا فى قرية من نبي فكذب به قومه إلا أخذنا "والأخذ" هنا هو الانتقام ، وحكمة إرسال الرسل عليهم السلام أنما بعث الله الأنبياء لهداية قومهم ونجاتهم من عذاب الآخرة فإذا كذبوا أنبياءهم أستوجبوا سخط الله وغضبه ، و "البأساء" كل شدة تتعلق بضروريات الحياة من حبس الأمطار ، ومن فساد الهواء فى الأجواء ، ومن نزول العاهات الجوية على المزروعات "والضراء" كل ما يتعلق بالصحة والعافية من أمراض وسقام وفساد فى الأخلاق.

وقوله تعالى **"لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ"** أي أن الله تعالى يأخذهم بتلك الشدائد الفادحة ليوقظ فيرجعوا إلى الله ويقبلوا الإيمان به والتسليم له سبحانه وتعالى وهى بيان لحكمة ما أخذهم الله به "ولعل" هنا بمعني اللام ، لأن الله لا يجوز له أن يشك فى شئ من أحداث المستقبل **"وَيَضَّرَّعُونَ"** أي يتضرعوا أدغمت التاء فى الضاد لقرب مخرجهما ، والتضرع الابتهال والتبتل لله تعالى والاستغاثة ، وفيها صدق التوبة والإنابة ، وإشعار القلب بتفريد الله تعالى بالنفع والضر بدليل الالتجاء إليه سبحانه ، فإذا تضرعوا كشف الله عنهم ما ألم بهم ، بقدر صدقهم فى تضرعهم.

قولـه تعـالى : **"ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"**(95).

هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى عن السنة الماضية فى خلقه فإنه سبحانه وتعالى أخذ أهل الكفر والعناد بغتة ليتضرعوا ، ثم أنه جل جلاله يبدل مكان السيئة الحسنة ليتذكروا فيذكروا فيقبلوا بقلوبهم وأبدانهم على الله تعالى ، فإذا فرحوا بما أوتوا ، ودليل فرحهم بما أوتوا خبر الله عن قولهم **"قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ"** غير مكترثين بما كن عليه آباؤهم وما أتاهم الله من فضله وغرتهم الحياة الدنيا.

وقوله تعالى **"فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"** أي بعد أن انتقمنا منهم أولا عند وقوع الكبائر منهم ، ثم بدلنا سوءهم حسنا فلم يتعظوا "أخذناهم بغتة" أي أخذناهم على غرة منهم "وهم لا يشعرون" والواو هنا للحال أي وهم لا يتذكرون ما أصاب الأمم السابقة ، ولا يحسون بنقم الله تعالى ولا بما آتاهم سبحانه من فضله لاسترسالهم فى الطغيان وأكثروا منه.

قوله تعالى : **"وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"**(96).

هذه الآية الكريمة بشرى لأهل الإيمان بالله تعالى وحجة على أهل الكفر بالله ، ومعنى **"آمَنُوا"** أي صدقوا **"وَاتَّقَوْا"** أي خافوا معاصي الله تعالى **"لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ"** للأرواح والأشباح ، أما بركات السماء للأشباح فهى الأمطار والهواء العليل البليل وضوء الشمس الذى يصلح بها الزرع والضرع ، وأما بركات الأرض للأشباح فهى الحيوانات والنباتات والمعادن والأنهار العذبة والبحار الملحة ، وبركات السماء للأرواح هى تنزل ملائكة الإلهام بكمال الإيمان والإحسان والإيقان وظهور أهل الحق الممدين بروح من عند الله تعالى ، الذين يكشفون للعقول آيات الله ويشهدون الأرواح بأحوالهم غيب معاني الصفات فى السموات والأرض والأجواء والأرجاء. وأما بركات الأرض للأرواح فهى آيات الله فى حقائقها الدالة على تفريده بالإلوهة، وعلي عجائب قدرته وغرائب حكمته ، وأني لفى عجب من رجل يحب الخير فى الدنيا والآخرة ولا يعمل بهذه الآية الشريفة فيؤمن بالله ويتقيه ويحكم لنفسه بالسعادتين ، وصدق الله العظيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وتارك العمل بهذه الآية مع الإيمان بها أقام الحجة أنه عاجز عن جلب الخير لنفسه أو دفع الشر عنها ، وهو الدليل على أن الهدى هدى الله تعالى.

قوله تعالى **"وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ"** وبعد أن بين سبحانه وتعالى أنه بعث رسله مبشرين ومنذرين لأممهم ولم يقبلوا هدى الله تعالى فانتقم منهم ، ، كما بين سبحانه ذلك فيما تقدم من الآيات ، ثم أنه سبحانه وتعالى دعاهم بالرحمة إلى الإيمان والتقوى فقال **"وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ"** رحمة منه سبحانه بهم ، ولكن القوم كذبوا بآيات الله ورسله بعد أن قامت الحجة الجلية.

قوله تعالى "فأخذناهم" تقع عنا للترتيب ، أي بعد أن هديناهم على السنة الرسل عليهم السلام أبوا أن يقبلوا الهدى فأخذناهم انتقاما منهم أخذ عزيز مقتدر ، "بما كانوا يكسبون" من الظلم لأنفسهم بعنادهم واستكبارهم على الله تعالى ورسلهم عليهم السلام.

قوله تعالى : **"أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ"**(97).

"الهمزة" هنا للاستفهام ، والمعنى هل عند هؤلاء القوم الظالمين حجة تجعلهم يأمنوا أن يأتيهم عذابنا على غرة منهم "بياتا" والحال "وهم نائمون" ولا حجة على ذلك ، ولكنه خبث الطبع ورداءه جوهر النفس وسوء القضاء نعوذ بالله تعالى من سابقة السوء.

قوله تعالى : **"أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ"**(98).
"الهمزة" للاستئناف أيضا "والواو" المفتوحة للعطف "يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا" أي عذابنا "ضُحًى" أي فى وقت ارتفاع الشمس **"وَهُمْ يَلْعَبُونَ"** والواو للحال ، والجملة حالية ، وهذه الآية تدل أن القوم كانوا فى ترف ونعيم ، وكان لهم ملاه يصرفون فيها أوقاتهم فى اللهو كما يفعل أهل هذا العصر الذين يقضون أوقاتهم فى اللعب والتردد على الملاهي لفراغ قلوبهم من عناء الحصول على العيش ، وقد عاد أهل هذا العصر إلى ما كان عليه أهل الجاهلية الأولي فنرى الملاهي قد كثرت ، وأندية اللعب والغفلة ازدادت حتى صارت مشهدا للملوك والعظماء والأمراء لما أستولي على القلوب من الغفلة عن الآخرة ، وأن هذه الآية تذيب قلوب أهل التقوى بما يرونه ظاهرا فى هذا الزمان ، فإن صرف الأوقات فى اللهو واللعب كما نرى الآن ذليل على قرب انتقام الله من العالم ، نسأل الله أن يحفظنا من افتن ويحصننا بشريعته المطهرة من الغفلة عن يوم الحساب.
قوله تعالى : **"أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ"**(99).
معني المكر المنسوب إلى الله هو سر القضاء الذى لا يعلمه إلا هو سبحانه ، أما المكر بمعني الخدع والفتن فمستحيل نسبه إلى الله سبحانه وتعالى ، ومعنى المكر هنا تقدير الله تعالى على الخلق ما لا يعلمونه ، ولكنه سبحانه وتعالى ينذرهم قبل وقوعه بما يدفعوه عنهم فلا يصدقون فيحيق بهم هذا القضاء وهذا **"مَكْرَ اللَّهِ"** لأنه قدره على غير علم منهم.
قوله تعالى **"فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ"** أي فلا يرتكب محارم الله والكفر به إلا الذين خسروا أنفسهم فى الدنيا بحرمانهم من الإيمان والتصديق بآياته ، وخسروها فى الآخرة بخلودهم فى عذاب جهنم.
وجائز أن تقول خسروا أنفسهم لأنهم لم يستعملوا قواهم العقلية فيما خلقت له من النظر فى آيات الله المنبلجة فى الكائنات ولا فيما بعث الله به رسله عليهم السلام ، وبذلك عاشوا يستعملون تلك القوى فيما يلائم طباعهم الخبيثة وأهواءهم وحظوظهم فخسروها فى الدنيا والآخرة كما تقدم.
قوله تعالى : **"أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ"**(100).
هذه الآية الشريفة ذكري لقريش ، وتأويلها أن الله تعالى يقول.
أولم يتبين الذين يرثون الأرض من بعد أهلها ، الذين هلكوا قبلهم بسبب ما ارتكبوا من الكفر بالله ومن تكذيبهم بآياته ، **"أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ"**.
"أن" وما دخلت عليه فى تأويل مصدر ليهد ، وعلى رواية النون فى يهد تكون أن وما دخلت عليه ، مأولا بمصدر مفعول به ، والمعني أن الله تعال يقول أننا بينا لقريش بيانا يجعلهم يقبلون الإيمان ويسارعون إلى العمل بأحكام شريعتنا التى بيناها بخاتم أنبيائنا عليه الصلاة والسلام ، ولو نشاء بعد تكذيبهم لأصبناهم بما أصبنا به من قبلهم من الأمم الذين كفروا وكذبوا ، والطبع والختم والكتابة ، سواء وهو قف القلب عن قبول الحق قوله تعالى : **"فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ"** أي أنا إذا طبعنا على قلوبهم أمتنع سماعهم سماع قبول وأن سمعوا أصوات الدعاة فإن السمع الحقيقي لا يكون إلا بالقبول لا بمجرد سماع الأمر قال الله تعالى : **"قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا"** أي قد قبل منها شكواها.
قوله تعالى : **"تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ"**(101).

الإشارة عائدة على قرى نوح وهود ولوط وصالح وشعيب عليهم السلام، **"نَقُصُّ عَلَيْكَ"** أي نخبرك بأنبائهم . قوله تعالى **"وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ"** أي بالحجج الواضحة.

"فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ" هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى عن تكذيب القوم بما جاءهم به الرسل ، لأنهم كذبوا بالآيات من قبل فى يوم ألست بربكم حين أخذ ربنا من بني آدم ن ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم فلم يؤمنوا إيمان قبول وتسليم ، فدل ذلك أنهم لا يقبلون الإيمان بعد وإنما كانت بعثة الرسل تذكيرا لهم بما سبق ، فمن كان قبل الإيمان قبلا قبله بعد ، ومن لم يكن قبله لا تقبله نفسه ، وجائز أن يكون تأويل قوله تعالى **"فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ"** أي فما كانوا ليؤمنوا عند بعثة الرسل إليهم بما كذبوا أي بما سبق فى علم الله من الكفر والتكذيب ، وسبب نزول هذه الآية أن الله تعالى يبين لقريش ما حل بالأمم السابقين من عذاب الله تعالى لكفرهم به وتكذيبهم أنبياءه ، لتقوى الحجة عليهم وليتذكروا تلك الأحداث العظام فيهتدى من سبق فى علم الله له الهدى ، ويضل من سبق له الإضلال على علم بعد هذا البيان الجلي.

قوله **"كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ"**. أي مثل هذا الطبع الذى طبعه الله على قلوب من كفر من الأمم السابقين وكذبوا أنبياءه "يطبع" أي يختم أو يقفل قلوب الكافرين الذين سبقت لهم السوءى ، وفى هذه الآية دليل على أن الإيمان والكفر بقدر الله تعالى أزلا.

قوله تعالى : **"وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ"**(102).

هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى عن قوم نوح ومن بعده من الأنبياء ممن بين الله لنا بيانهم فى الآيات السابقة "والعهد" هو وصية الله تعالى والإيمان وشعبه ، وجائز أن يكون العهد كما بينت لك قبل هو ما أخذه الله تعالى علي ذرية آدم التى أخذها من ظهور أبنائه يوم ألست بربكم فمن آمن فى هذا العهد ، قبل عن الله ما بعث به رسله عليهم الصلاة والسلام ، ومن لم يؤمن فى هذا العهد أبي أن يصدق الرسل عليهم الصلاة والسلام ، ويكون معني هذه الآية الشريفة أن من لم يسبق لهم وفاء وإيمان فى علمه تعالى لا يوجد الله جل جلاله لهم فى هذا الكون وفاء **"وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ"**، يخبرنا الله تعالى فى هذه الآية أنه جل جلاله حكم على أكثر هذه القرى بالفسوق "والفسوق" هو الخروج عن الدين ،وأما الفسوق فى اللغة فهو خروج الحية من ثوبها ، يقال فسقت الحية أي خرجت من ثوبها ، كما يقال فقست الدجاجة أي أخرجت فراخها ، فيكون الحكم عليهم بالكفر لأنه سبحانه أخبرنا أنهم "فاسقون" أي مارقون من الدين ، "وأن" هنا نافية "واللام" للقسم ، والمعني وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين.

قوله تعالى : **"ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ"**(103).

بعد أن قص الله على خاتم أنبيائهε ما قصه من أخبار قوم نوح وعاد وثمود وهود ولوط وصالح وشعيب وما بين لهم من البينات وأظهر لهم من المعجزات على أيدي الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وقص علينا سبحانه كفرهم بالله وتكذيبهم بآياته ليعتبر أهل الفهم عن الله . أخبرنا سبحانه وتعالى بقوله **"ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا"**.

و "ثم" هنا للتراخي لطول المدة بين عهود الرسل وعهد موسى و "بعثنا" من بعد جميع الرسل السابقين موسى بن عمران **"بِآيَاتِنَا"** والآيات منسوبة إلى الله تعالى ، ونسبة الآيات إلى الله تعالى برهان على عظمتها وأنها قوية الحجة **"إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ"** أما فرعون فهو اسم علم جنس يشير إلى ملوك مصر ، كما أن كسرى علم جنس لمن ملك فارس ، وقيصر علم جنس لمن ملك الروم ، وأكبر

الآيات التى بعث الله بها موسى عليه السلام ليقيم الحجة على فرعون هى العصا ، "والملأ" هم أشراف القوم الذين هم قادة الأمة **"فَظَلَمُوا بِهَا"** أي ظلموا أنفسهم بسبب كفرهم وتكذيبهم بالآيات.

قوله تعالى **"فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ"** أي أعجب بعد النظر فى فرعون وملاءة كيف يتفضل الله عليهم ببعثة رسول منهم ونؤيده بالمعجزات التي هي في قوة قول الله تعالى "صدق عبدي فيما جاءكم به من عندي فاتبعوه" ومع هذا فإنهم عدلوا بالله الأصنام والأنداد وكفروا به سبحانه وكذبوا برسوله موسى عليه الصلاة والسلام ، ويأليت فرعون وقف عند هذا الحد بل تجاوزه إلى الربوبية **"فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى"**[1] وتجاوز ذلك فقال **"يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي"**[2] .

فانظر يا محمد إلى ما حل بفرعون وملاءة انتقاما منهم على كفرهم بنعمة الله التى تفضل الله عليهم بها ، وأسوأ عاقبة هي ظلمهم أنفسهم بالكفر ، وتلك العاقبة تجلت بسبب دعوة موسى إليهم وأنتجت شر العواقب ،منها أنه سبحانه وتعالى أرسل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس على أموالهم والشد على قلوبهم وحرمانهم من الإيمان حتى يروا العذاب الأليم ،وبعد أن رأو العذاب وآمنوا لم يقبل منهم الإيمان ، وخاتمه انتقام الله منهم إغراقهم فى البحر ثم حفظ جثة فرعون بعد موته ليكون عبرة للمعتبر ، ثم يكون إماما لمن يوردهم الله النار وهذه أسوأ عاقبة أعاذنا الله من سوء الخاتمة.

قوله تعالى : **"وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ"**(104).

"الواو" هنا للاستئناف ، والجملة مستأنفة "يا فرعون" ناداه موسى باشرف الأسماء وأحبها إليه متلطفا معه كما أمره الله تعالى بقوله **"فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا"**[3] ، "وفرعون" علم جنس لمن كان يملك مصر ،وكان اسمه الشخصي الوليد ، فقال له موسى **"إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ"** أي مرسل ممن خلقكم من العدم ، ورباكم بفضله وإحسانه وغذاكم بجوده وآلائه ، وفيه بيان من موسى عليه السلام أنه مرسل من رب العالمين الذى لا إله إلا هو ، وفى ضمنها الدعوة إلى توحيده سبحانه ، والحجة القائمة على فرعون وملاءة الذين كانوا يتخذون فرعون ربا من دون الله.

وفى الآية حجة ودعوة ، أما الحجة فلانه لم يقل الملك ولا القهار ولا الجبار ،ولكنه أتي بما تسجد له العقول من إثبات أنه رب العالمين ، ودحض لدعوى فرعون أنه رب مصر ، والدعوة أنه من الحكمة دعوة فرعون إلى توحيد الله والإقرار له بأنه رب العالمين لا شريك له وهذا هو لب رسالة موسى إلى فرعون وملاءة.

قوله تعالى : **"حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ"**(105).

تأويل هذه الآية "حقيق" أي واجب على بصفتى رسول رب العالمين أن لا أقول إلا الحق ، فإذا جعلنا "على" بمعني الباء تكون المعنى حقيق بأن لا أقول إلا الحق ، وإذا كانت مضمنة معنى "واجب" أي واجب على أن لا أقول إلا الحق الذى أمرنى به سبحانه وتعالى وكلفني أن أبلغكم به ، لأن رب العالمين لا يقوى أحد أن يكذب عليه ويمهله نفسا ، وخصوصا من أدعى الرسالة **"قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ"** أي جئتكم بآية لا يقدر على إظهارها إلا ربكم جل جلاله ، لأني عبد مثلكم لا أقوى على إظهار شئ من الآيات بنفسى إلا ما كان فى مقدور البشر ،وما جئتكم به من البيان فإنه لا يقدر على إيجاده

([1]) سورة النازعات آية : 24.

(2) سورة القصص آية : 39.

(3) سورة طه آية : 44.

فى الأعيان الظاهرة إلا قدرة رب العالمين ، فكان إظهاره برهانا على أن الله تعالى كأنه يقول لكم "هذا عبدي أرسلته إليكم فصدقوه وأتبعوه" "والبينة" هى الآية الجلية أو الحجة القائمة "**فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ**" "الفاء" للتعقيب والاستئناف "أرسل" أمر من موسى عليه السلام لفرعون ،وهو المطلوب له . "معي بن إسرائيل" وبنوا إسرائيل هم أبناء يعقوب الذين دخلوا مصر فى زمان يوسف عليه السلام وتوالدوا وكثروا.

قوله تعالى : "**قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**"(106).

"**قَالَ**" هنا استئناف ، "وأن" شرطية و "**جِئْتَ**" فعل الشرط "**بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا**" و "الفاء" هنا رابطة للجواب ، لأن فعل الأمر لا يصلح جوابا إلا برابطة "**فَأْتِ بِهَا**" أي أظهرها لنا "**إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ**" أي أن كانت لديك حجة تقوم دليلا على صدقك ، وهذا إنصاف من فرعون ،وهو من عناية الله تعالى بكليمة عليه السلام ، إذا أن غلظة الملوك وكبرياؤهم تمنعهم عن مثل هذه المعاملة التي تنبئ بالعدل والحلم ، وعندي أن فرعون لم يقل هذا الكلام إلا وهو موقن بكذب موسى ، وأنه ليس رسولا وليس معه آية ولا حجة ، وبالتالي سينكشف أمره أمام الحاضرين ، وذلك من نصرة الله تعالى لرسوله ، لقوله تعالى : "**إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا**"[1].

قوله تعالى : "**فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ**"(107).

تأويل هذه الآية أن الكليم عليه السلام أظهر بعض ما تفضل الله به عليه من الآيات الدالة على صدقه ، وهو شأن أهل اليقين الحق ن وفيها ضمنا بيان أن سيدنا محمدε هو خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، لأن الله تعالى لم يبعث رسولا قبلهε إلا وحجته غير دعوته كما فعل مع موسى عليه السلام ، فإن العصا واليد غير الدعوة ، أما رسول اللهε ، فإن الله جمع له الدعوة والحجة فى القرآن العظيم ، فجعل الدعوة هى الحجة ، ولذلك ثبت أنه خاتم النبيين ، لأن حجته قائمة على دعوته ،ودعوته هى القرآن وهو الحجة ، ولذلك فإن القرآن نقرؤه الأن كأنه أنزل لتوه فى هذا الزمان ، فهو غض نضر لا تفني عجائبه ، ولا تنتهي غرائبه ، وأما حجج الأنبياء من قبله فكانت أحداث محسوسة ملموسة تؤيدها ، فلا ينتقل الرسول منهم إلا الرفيق الأعلى إلا وتذهب قوة الحجة وتظل الدعوة مجردة منها ، فيتلاعب أهل الأهواء بالدين ويحرفونه بحسب أهوائهم لتجرده من كل سند أما الإسلام فإن حجته قائمة إلى يوم القيامة ـ وليلنا على ذلك فى أن اليهود قبل أن تجف أقدام بني إسرائيل من ماء البحر الأحمر بعد عبوره قالوا لنبيهم " **يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ**"[2] لأن الحجة غابت عن الحس ، وما غاب عن الحس غاب عن النفس.

قوله تعالى : "**وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ**"(108).

وكانت داخل ثيابه من جهة اليسار بدليل قوله تعالى "**وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ**" ومعلوم أن جسم الإنسان أبيض فإذا كان بياضها يجانس أو يشاكل بياض الإنسان أو فوقه بقليل لما قامت بها الحجة ، فثبت أن بياضها مما يحير العقول ويكاد يحجب البصر عن النظر إليها لتألقها كالنجوم الزاهرات، ولو كان بياضها كالبهق والبرص لما كانت معجزة و "للناظرين" أي الذين ينظرون إليها من فرعون وملاءة.

قوله تعالى : "**قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ**"(109).

([1]) سورة غافر آية : 51.

([2]) سورة الأعراف آية : 138.

الملأ هم أشراف القوم ، أي من قوم فرعون ، والإشارة عائدة إلي موسى ، والساحر هو الذي ينوع الأفكار حتى تنقلب الحقائق إلى اضدادها أمام الناظرين ، وأصلها مأخذوة من المطر فإن المطر يسمي الساحر بالنسبة للأرض ، والمطر إذا هطل على الأرض قلبها وغير شكلها فيسمي ساحرا لذلك، وكلك الإنسان القوى الإرادة الشديد التأثير ، فإنه يقلب الحقائق بسحره "عليم" أي متمكن فى علم السحر وراسخ القدم فيه.

قوله تعالى : **"يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ"**(110).

تأويل هذه الآية أن الله تعالى يخبرنا عن الملأ من قوم فرعون أنهم بعد أن قالوا لفرعون أن هذا أي موسى عليه السلام لساحر عليم . أي قوم التأثير بحقيقة نفسه وبعلمه الذى تحصله ، يريد بما أوتيه من قوة الإرادة وعلم السحر أن يكون ملك مصر ـ بعد إخراجه بني إسرائيل بقوة سحره ـ ملكا ضعيفا خاليا من الخدم العاملين ، والصناع المهرة الحرفيين ، فكان هذا الاستنتاج من الملأ يزعج فرعون أيما إزعاج ، ولولا أنه رأي بعينيه هول العصا عندما انقلبت إلي ثعبان هائل كاد يلتهم القصر وما فيه ومن فيه لأمر بقتله فورا، ومن رهبته انتظر الحكم من ملائه فلما أخبره بما أخبرنا الله فى هذه الآية بقوله تعالى **"فَمَاذَا تَأْمُرُونَ"** وهذا خبر من الله عن قول فرعون لملائه بعد أن حكموا علي موسى بأنه ساحر عليم لما أظهره من انقلاب العصا ثعبانا هائلا مبينا أي ظاهرا لكل الناس لكبر حجمه الضخم ، فقال لهم فرعون **"فَمَاذَا تَأْمُرُونَ"** و "الفاء" هن للتعقيب و "ماذا" استفهامية و "تأمرون" جملة خبرية معناها أي شئ تأمرون به أو تشيرون بعمله ، دبرونى أيها الملأ.

قوله تعالى : **"قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ"**(111).

وهذه الآية من قول الملأ وأن لم يكن لهم ذكر فيها إلا أن العرب يحذفون ، بمعني قال ملأ فرعون له بعد استفهامه منهم عما يرونه فى شأن موسى عليه السلام و "أرجه" أصلها "أرجئه" وبكسر الهاء وقرئت بإثبات الهمزة وضم الهاء ، ومعناها أخره وأخاه هارون عليه السلام ، "وأبعث فى المدائن حاشرين" أي وأرسل الحاشدين من عمالك الذين يحشدون لك إتاوة الزراعة من المزارعين ، والحاشد هو عامل السلطان من الشرطة و "المدائن" جمع مدينة ، "والمدينة" مأخوذة من دان يدين فصار مدينا أي مملوكا أي أرسل حشدتك إلى المدائن ليجمعوا لك المتفوقين فى السحر.

قوله تعالى : **"يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ"**(112).

وهذا الخبر من الله تعالى حجة على أن فرعون وملأة خشعت قلوبهم للعصا ـ عندما انقلبت ثعبانا ـ خشوعا جعل فرعون يستشيرهم ، فأشاروا عليه بقولهم أرجه ، أي أخر موسى وأخاه . وهذه معجزة كبرى لموسى عليه السلام، وهى نصر الله وعد به أنبياءه عليهم الصلاة والسلام . بصريح قوله تعالى **"إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا"**[1].

قوله تعالى : **"وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ"**(113).

هذه الآية دلت على محذوف ملحوظ تقديره فأرسل فرعون جنوده إلى المدائن فجمعوا له النبغاء فى السحر فجاء السحرة لفرعون وقالوا **"إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ"** هذه الآية خبر من الله تعالى عن قول السحرة لفرعون معتقدين أنهم ينصرون فرعون على عدوه بما تعلموا من السحر ، "وأجرا" أي ثوابا "أن كنا نحن الغالبين" أن للشرط "وكنا" قبل الشرط وجواب الشرط محذوف لأن عليه ما قبله ، والمعني أنهم يقولون لفرعون "أن لنا لأجرا" عندك أن غلبنا عدوك هذا بسحرنا.

قوله تعالى : **"قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ"**(114).

([1]) سورة غافر آية : 51.

قال استئناف ، ونعم جواب بالإيجاب ، وتأويل هذه الآية أن فرعون أجابهم بأن يعطيهم طلبهم وزيادة بدليل قوله تعالى خبرا عنه بقوله **"وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ"** أي وأزيدكم على ما طلبتم أن أقربكم منى قربا يرفع مقامكم بين الأمة . وهذا الكلام تشجيع لهم ليقدموا نهاية ما يعلمونه من السحر.

قوله تعالى : **"قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ"**(115).

فى هذه الآية يخبرنا الله تعالى عن تلطف السحرة في مخاطبتهم موسى عليه السلام لعلمهم بما حصل لفرعون وملائه ـ عند انقلاب العصا ثعبانا ـ من الذعر والفزع الذى بلغ بفرعون منتهاه ـ وبدليل استغاثته بهم على عدوه.

قوله تعالى : **"قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ"**(116).

قال موسى للسحرة "القوا" أي ابتدئوا أنتم بإلقاء عصيكم وحبالكم "فلما ألقوا" وهذه الآية فيها محذوف ملحوظ وهو فعل الإلقاء لما في أيديهم من عصى وحبال ، وهذا الإلقاء كان معدا فيه ما يوهم الحس وينوع الفكر ويجعل الناظر إلى حبالهم وعصيهم يخيل إليه أن حقائقها انقلبت إلى أنواع أخرى تفزع الناظرين ، حتى بلغ ما ظهر فيها أن أوجس موسى خيفة على دعوته من أن تتأثر بما يرى من انقلاب الحقائق في نظر المشاهدين . قال تعالى فى آية أخرى بيانا لهذا الخبر **"فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى"**[1] **"وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى"**[2] لديها ثبت لموسى أن السحر لا حقيقة له وأنه أوهام من تأثير النفوس وسرعة الحركة وعلم تأثير حركات السحرة على أذهان الناظرين وأما ما في يمينه فأنه الحق الجلي القوى الذى هو من آيات الله الكبرى.

قوله تعالى : **"وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ"**(117).

فكان الوحي من الله تعالى لموسى عليه السلام تثبيتا لفؤاده وتأيدا له فى موقفه ، وتأكيدا لنصر الله له حال دعوته إلى الله تعالى ، وإقامة الحجة على انفراد الله تعالى بالألوهة والربوبية ، وفى الأمر من قوله **"أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ"** أي ألقي عصاك و "أن" هنا بمعنى أى التفسيرية فى قوة كلمة "كن" من الله تعالى ، فألقي موسى عليه السلام عصاه فانقلبت حية حقيقية لا وهما ولا سحرا ولا تنويما حيث فغرت فاها فالتهمت حبال السحرة وعصيهم وعادت كما كانت لم تتغير ، ولما كان السحرة قد بلغوا من التمكين فى علم السحر مالم يبلغه إنسان سواهم مما جعلهم يتحققوا أن تلك القدرة لا تكون إلا بالله تعالى لا بسحر ساحر ولا بعلم إنسان.

قوله تعالى : **"فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"**(118).

أي ظهر واتضح الحق ولا يقال وقع فى الشئ إلا إذا ثبتت كينونته الحقيقية **"وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"**من الأوهام والخيالات وإتقان سرعة الحركات ، ومن العلم بخواص المعادن والعقاقير التى أتقنوا بها سحرهم بالتركيب والتحليل والمزج والخلط.

قوله تعالى : **"فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ"**(119).

فقهروا عندما شهدوا العصا ثعبانا عظيما يبتلع حبالهم وعصيهم بسرعة تحير العقول ثم تعود إلى حالها الأول مجرد عصاه **"وَانْقَلَبُوا"** أي ارتدوا أذلاء منهزمين أمام الحق البين الذى لا ينكره إلا مكابر جاهل.

([1]) سورة طه آية : 67 – 68.

(2) سورة طه آية : 69.

قوله تعالى : **"وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ"**(120).
قوله تعالى : **"قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ"**(121).
قوله تعالى : **"رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ"**(122).
هذه الآيات الشريفة من الله تعالى خبر عن قول السحرة بعد أن قامت عندهم الحجة وظهرت لهم المحجة التى قبلتها عقولهم لما كانوا عليه من العلم الذى إليه تنتهي قدرة الإنسان الكامل ، وبعد يقينهم الحق بأن تلك الآية معجزة لا يقوى على إظهارها إنسان مهما بلغ من الكمالات الإنسانية إلا إذا كان مؤيدا من الله تعالى بروح منه ، ومتى باشر القلب اليقين الحق اضمحلت فى عين الموقن الدنيا والآخرة بل والحياة الطيبة ، وقد أقام السحرة الحجة أنهم بلغوا اليقين الحق فى نفس ، وكذلك يكون من سبقت لهم الحسنى إذا سمعوا الحكمة فروا إلى الله تعالى مما سواه ومن سواه قالε "المؤمن يكفيه قليل الحكمة" وأن ما أقامه السحرة من الحجة على صفاء جوهر نفوسهم لبرهان على اختصاصهم بسابقة الحسنى من الله تعالى.
قوله تعالى : **"قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ"**(123).
غر فرعون ما توهمه من أن موسى عليه السلام يريد أن يكون ملك مصر ويخرجه وملاءة ، وظن لسابقة السؤى أن موسى عليه السلام هو استاذ السحرة ، لأنه عليه السلام تعلم فى دار الدراسة بمصر قبل هجرته إلى مدين حيث تربى بقصور فرعون ، ومعنى هذه الآية أن فرعون يقول للسحرة أنتم آمنتم بموسى ، رغم أني جمعتكم لتنصروني عليه ، فما الذى دعاكم إلى الإيمان به قبل أن تستأذنوني ، قال ذلك جهلا منه بقوة الحجة التى ملأت قلوب السحرة يقينا ، ومنعه عن قبولها غروره بالملك وخوفه عليه ، فقال لهم ما أخبرنا الله به فى آية أخرى : **"إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ"**[1] أيام كان يتعلم معكم ، وما آمنتم به إلا لتعينوه على سلب الملك.
"إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ" أي أن إيمانكم بموسى قبل أن آذن لكم مكيدة وخدعة منكم نصرة لموسى عليه السلام لتمكنوه من الملك ولتخرجوا أهل المدينة منها ـ وأهل المدينة هم الهيئة الحاكمة من فرعون وملائه ـ لتصنعوا الملك لموسى وقومه **"فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ"** تهديد من فرعون للسحرة أي فسوف تعلمون أنواع العقوبات والإنتقامات التي سأنزلها بكم جزاء إيمانكم بموسى من غير استئذان مني.
قوله تعالى : **"لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ"**(124).
يقول فرعون للسحرة بعد أن هددهم بقوله **"فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ"** مبينا لهم نوعين من العذاب الذى ينتقم به منهم والنوع الأول قوله **"لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ"** "اللام" للقسم والفعل مؤكد بلام القسم ونون التوكيد ، و**"أَيْدِيَكُمْ"** مفعول به **"وَأَرْجُلَكُمْ"** معطوفه عليه **"مِنْ خِلَافٍ"** أي أنه يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف بمعنى أنه يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى.
النوع الثاني من أنواع الإنتقام بينه بقوله ثم لأصلبنكم أجمعين ، وأتي "بثم" هنا ليطيل المدة عليهم فى آلام القطع نكاية بهم **"لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ"** "اللام" هنا للقسم أيضا "والصلب" هو فقد الحياة بالربط على سارية أو جذع نخلة ، وهو النوع الثاني من عقوبته لهم.

([1]) سورة طه آية : 71.

وهنا للعقل جولة فى تقدير الله تعالى ، لأنه إذا نظر إلى فرعون وتمرده وطغيانه ، لعلم مقدار خبث الطبع الإنساني وشرور النفس الإمارة بالسوء ، وجهل الإنسان بقدره الحقيقي . ولتذوق مقدار أمهال الله للظالم الطاغي وصبره عليه سبحانه مع قدرته على سرعة الانتقام منه ، ولكنه سبحانه وتعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، بل يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، وأنظر إلى عنايته سبحانه بأهل محبته حين أقاموا الحجة البالغة على كمال يقينهم بما تبينوه من آيات الله العلية التى انبلجت أنوارها فى عصى موسى عليه السلام ، حيث كانت تلك المعجزة كشفا لحجاب الغفلة والنسيان عن قلوبهم حتى ظهر لهم الحق جليا فهشت له قلوبهم وبشت ، ومع هذا فإن الله تعالى أقام لهم الحجة على كمال يقينهم وصدقهم بما اختبرهم به من ظلم فرعون لهم وبقبولهم مالا يطيقه إنسان عقوبة لهم على الإيمان ، فلم يزدادوا إلا يقينا ورضا عن الله وفرارا إلى لقائه جل جلاله ن مع أنهم لو أقروا فرعون بألسنتهم مع طمأنينة قلوبهم لكان هذا مقاما لهم فى الإيمان ، ولكن الله قدر أن يرفعهم إلى أعلا مقامات اليقين الحق بما تفضل به عليهم من الرضى مع فادح البلاء ، وأن أكمل عارف إذا تمثل تلك الحادثة الشنعاء تصاءلت نفسه فى نظره ، نسأل الله تعالى أن يعاملنا بجماله ،وأن يعيذنا بوجهه من الفتن المضلة أنه مجيب الدعاء.

قوله تعالى : **"قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ"**(125).

هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى عن قول من كانوا سحرة صباحا فصاروا أكمل أولياء الله مساءا ، وهى العبرة التى تجعل المسلم لا يقنط من رحمة الله وفى نفس الوقت لا يأمن مكر الله تعالى ، فالسحرة جاءوا ينصرون الباطل على الحق فما مضيت أنفاس قليلة إلا ورفعهم الله إلى مقام القرب منه، فلم تزغ قلوبهم بعد اليقين رغم ابتلائهم بفادح البلاء ، وماذا نقول فيمن أشهدهم الله جمال ملكوته الأعلى ، وأطلعهم على غيب حقيقة متاع الدنيا الفاني ، وجمال الآخرة الباقي ، فقالوا كما أخبرنا الله تعالى عنهم **"إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ"** أي راجعون إلى من آمنا به بعد قيام الحجة ووضوح المحجة إيمانا بلغ اليقين الحق ، ومن يرجع إلى ربه مؤمنا به مرضيا عنه ، فارق الدنيا فرحا بمفارقتها ورجع إلى ربه راضيا عنه ومسرورا بلقائه ، ومطمئنا بما يناله عنده من النعيم المقيم فى جوار الأحبة من عباده خالدين فى بقاء أبدي.

قوله تعالى : **"وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ"**(126).

هذا ما أخبرنا به الله تعالى عن قول السحرة لفرعون بعد إيمانهم بآيات الله تعالى حيث قالوا له ما غضبت علينا إلا لسبب واحد هو أنا آمنا بربنا ، ولو كانت من أهل السعادة لكان هذا الداعي سببا لإكرامك لنا ، ولكن الله يستدرج فرعون من حيث لا يعلم ويملى له بتقديره الخفي ليزداد فى طغيانه، ولهذا دعوا الله تعالى بما أخبرنا به سبحانه من قولهم رضى الله عنهم.

"رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ" أي صب علينا الصبر منك صبا يعيننا على تحمل الأذى ويجعلنا نثبت على ما تحب وترضى "وتوفنا مسلمين" أي احفظنا عند الاختبار من الفتن في الدين حفظا لنا حتى تتوفانا أي تقبض أرواحنا ونحن مسلمين ـ أي مسلمين لك بك سبحانك ـ راضيين عنك رضا تحبه منا فأنك سبحانك أرحم وأحن على من وفقتهم لما تحب من أن تسلب منهم أعظم نعمة أنعمت بها عليهم وهى الإيمان بك وبكتبك وملائكتك ورسلك.

وفي هذه الآية إشارة إلى أن أهل الإيمان يضرعون إلى الله تعالى عند جهادهم فى ذاته الجهاد الأكبر مفوضين أمورهم إليه خائفين من خفى المكر أو سوء الأدب معه سبحانه ،وشتان بين من عرف الله

فكمل أدبه معه سبحانه وبين العباد الزهاد الذين لا يعرفون الله فإنهم يغترون بأعمالهم مع أن أعمال السحرة التى قاموا بها بعد الإيمان وصبروا مع الله عليها فوق طاقة البشر إلا من عصم الله تعالى.

قوله تعالى : **"وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ"**(127).

الواو للاستئناف ، و **"الْمَلَأُ"** هم أشراف قوم فرعون وهم مردة الأنس معه **"مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ"** بيان الملأ ، والهمزة فى **"أَتَذَرُ"** للاستئناف ، و **"أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ"** أي تترك موسى ومن معه بعد أن ظهر منهم ما ظهر من سعيهم لإخراجك من الملك واستيلائهم عليه إفسادا فى الأرض ، وقوله تعالى مخبرا عنهم **"لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ"** أي ليسلبوا الملك من أهله وهذا هو الإفساد عندهم ، قوله **"وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ"** تأويل هذه الآية أن "الواو" هنا للمعية لسبق الاستفهام عليها "ويزر" منصوب "والكاف" كناية عن المخاطب ، وجائز أن تكون "الواو" للعطف "ويذر" معطوفة على تذر الأولى مرفوعة ، وقوله "آلهتك" أي الأصنام التى أمرتنا بعبادتها ، وقد قرأ عبد الله بن عمرو ابن عباس "الهتك" بكسر الهمزة أي عبادتنا لك مأخوذة من "أله تأله" أي تنسك ويتنسك ويكون تأويل الآية أتذر موسى وقومه وهو يذرك ويذر آلهتك ، والتأويل الأول هو الأولي ، لأن عليه قراء الأمصار بنصب "يذرك" ونصب فقط "الهتك".

قوله تعالى **"قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ"** هذه الآية الشريفة دلت على أن فرعون ملئ قلبه خوفا من موسى بعد أن رأي ما رأي من العصى ، ولذلك فإنه تركه يعمل ما يشاء فى المدينة ، فلما عارضه قومه وكان مرادهم قتل موسى ومن معه فمنعه الفزع من أن يجاريهم فى مرادهم وقال لهم "سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وأنا فوقهم قاهرون" أي سنعيد عليهم الكرة الأولي بقتل أبنائهم الذين هم العصبة الكبرى لنصرة موسى وتمكينه من الملك ، ونستبقي نساءهم لأنهن ضعفاء.

وفي هذه الآية سر من خفي لطف الله برسله عليهم الصلاة والسلام ، لقوله تعالى **"إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا"**[1].

قوله تعالى **"وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ"** هذه الآية خبر من الله تعالى عن قول فرعون بعد أن هدده قومه ، ومعني هذه الآية أن الظالم المتسلط يرى نفسه فوق من سلط عليهم ، وأنه قاهر لهم ، ومن لا بصيرة عندهم ممن ستر الغيب عنهم تغرهم السلطة وعلو الكلمة ، وأن فى النفس غيا عاليا لم يشهد إلا لفرعون الذى لجهالته بالمنعم عليه سبحانه قال **"أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى"** ولو أنه عرف نفسه فعرف ربه لآنس بالعبودية أنسأ يجعله آمنا فى الدنيا والآخرة من السقوط فى هاوية القطيعة والكفر بالله تعالى.

قوله تعالى : **"قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ"**(128).

سبب نزول هذه الآية ظلم فرعون لأنه أمر بقتل كل من يولد من بني إسرائيل واستبقاء البنات ، فعظم الأمر على بني إسرائيل بحالة اهلعتهم ، فأخبرنا الله تعالى بهذه الآية عن قول موسى لقومه عندما أشتد بهم المصاب فأن قتل الذرية مؤلم جدا خصوصا على النفوس التى تضمر أن تثأر لنفسها ، فنوع أفكارهم موسى عليه السلام بقوله **"اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا"** أي استعينوا بالله على أمر الله وقدره وعلى ظلم هذا الطاغية ، وكان موسى عليه السلام يجد فى نفسه وجدا على فرعون ، ولولا أنه من

([1]) سورة غافر آية : 51.

أولي العزم لما رضى أن يصبر على هذا البلاء من كافر جاحد ، وقد أكد الجملة بأدات التوكيد تقوية للخبر لتقبله النفوس بطمأنينة الراجي رفع الظلم عنه.
قوله تعالى **"إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ"** لأن الأرض لله إيجادا وملكا وتصريفا ، ليس له شريك فى إيجاد ما شاء ومحو ما شاء و "يورثها من يشاء من عباده" أي ينقلها من قوم بعد أبادتهم أو بعد سلب النعمة منهم فيملكها من شاء من خلقه ، ولذلك فأهل الإسلام لا يطمئنون لتلك الدار الدنيا لأنهم تحققوا زوالها ، وأهل الإيمان والإحسان بحفظهم من الغرور بالنعمة خوف الآخرة ومراقبة الملك المطلق الأبدي الأزلي والفعال لما يريد لأنهم على يقين أن أي مخلوق لا يملك نفسه ضرا ولا نفعا لأن المحي والمميت والمعز والمذل هو الله تعالى ، ويرون أن الشدائد فى تلك الدار الدنيا خير من الرخاء واليسر ، وبقدر المجاهدة فيها تكون المشاهدة ، فشدة ترجع العبد إلى الله خير من رخاء يبعده عن الله تعالى ولكن أكثر الناس لا يعلمون.
"وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ" أي عاقبة الأمر وأخرته فى الفوز بالنعيم المقيم فى دار المسرات الباقية كائنة ومتحققة للمتقين ، الذين اتقوا محارم الله ومغاضبه.
قوله تعالى : **"قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ"**(129).
سبب نزول هذه الآية الشريفة أن موسى عليه السلام لما أن هاجر ومعه قومه ،وكان خروجهم تحت ستار ظلام الليل ، وبلغ ذلك فرعون فأمر بأن تشوى له شاة فيأكلها قبل خروجه وراءهم ، ثم أمر بحشد الجنود وخرج مسرعا ليرك موسى وقومه ، فلما وصل موسى عليه السلام إلى البحر أدركهم فرعون فكان البحر أمامهم وفرعون وجيشه وراءهم فعظم الأمر حتي بلغ السيل الربي، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وتحققوا الهلاك ، فنظروا إلى موسى و **"قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا"** ، أي أوذوا بما فعله فرعون فيهم من قتل أبنائه وإزلال رجالهم وإهانة نسائهم ،وكان هذا كله لأن المنجمين أخبروه بأنه يولد فى هذا الزمان ولد يخرب ملكه فأمر بقتل كل مولود يولد ، وبعد أن بعث الله موسى عله السلام أشتدت وطأة فرعون عليهم بما أظهره الله على يديه من الآيات الباهرات التى ختمت بالعصا ، وكان موقفهم بين البحر والجيش كموقف من فى سكرات الموت الأليمة ، فأجابهم موسى بما فيه البشرى والتخويف ، أما البشرى ففى قوله **"عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ"** أي أني أرجو رجاء محققا من الله أن يهلك فرعون وجوده **"وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ"** وهى بشرى محققة مترتبة على بشرى هلاك عدوهم، ولأنها خبر كليم الله تعالى الذي لا ينطق عن الهوى ، وقد حقق الله بشرى كليم الله عليه السلام فإن سبحانه أهلك فرعون وجنوده وأستخلفهم فى أرض العمالقة كما سيأتي ،وأما التخويف ففى قوله **"وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ"** لأنها تشير إلى أن القوم بعد تأييد الله لهم ونصرتهم على عدوهم سينسون كل تلك الحقائق التى لا تغيب عن ذهن من شهدها ، ولكنهم نسوها وخالفوا ربهم فيما أمرهم.
قوله تعالى : **"وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ"**(130).
أي حبسنا عنهم أمطار السماء سنين "والسنة" لغة تعنى الجدب ، فيقال القوم فى "سنة" أي حلت بهم "سنة" أى أجدبوا ، والمعنى أن الله تعالى منع السماء أن تمطر وأنقص ثمارهم التى توجد فى كل سنة فى أوقاتها ، ثم أنقص النيل عن الوفاء ، وكل ذلك حتى يعتبر القوم ويرجعوا إلى الله تعالى فأبت نفوسهم العنادية إلا أن يكونوا كفارا بالله مكذبين بآياته "والأخذ" فى القرآن دليل العقوبة من الله تعالى ، حفظنا آله من كل عمل يغضبه أو قول أو حال يكرهه سبحانه.

"لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ" أي يذكرون أن ما حل بهم كان عقوبة من الله تعالى لكفرهم به سبحانه وتكذيبهم لكليمه عليه السلام . فيسارعون إلى الإيمان بعد أن يكشف الله تعالى عنه دلائل غضبه ، قال تعالى : **" مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا"**[1].

قوله تعالى : **"فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"**(131).

من فهم حالة فرعون يحكم أنه كان معاندا ، لأنه مع ما أقامه الله له من الحجج والبينات لم يكن ليقبل الإيمان ، وقد قالε "الناس على دين ملوكهم" ولما كان فرعون نافذ الكلمة مؤثرا على قلوب قومه كانوا أميل إلى العند منهم إلى قبول الحق وفى هذه الآية الشريفة يخبرنا الله تعالى بها عن حال قوم فرعون فى مصر أنهم كانوا إذا جاءتهم الحسنة من النمو فى الأموال والأولاد والزراعات وزيادة النيل والأمطار والعافية حكموا بحالتهم أنها لهم استحقاقا ، وأنها من فرعون إيجادا أو من الكواكب التى كانوا يعبدونها ، وذلك من خبث طباعهم وجهالتهم بأنفسهم وبالمنعم جل جلاله ، وأن تصبهم سيئة من جدب وقحط وسقام وهموم وغموم **"يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ"** ويتطيرون بمعني يتشائمون بموسى ومن معه ممن آمن به من قومه، لأنهم يرون السيئة حلت بهم لوجود موسى وقومه يعبدون غير آلهتهم ، ولذلك أصابتهم البلايا ، ولأن القضاء قد سجل عليهم الكفر لم ينفعهم ما جاءهم به موسى من عند الله سبحانه ، والتشاؤم فطرة فى الإنسان إذا أظهرها عند الشدائد دل ذلك على ضعف إيمانه ، قالε "لا عدوي ولا طيرة ولا هامة" وهذا لأهل اليقين الكامل ،وقال لغيرهم ممن لم يبلغوا مقام اليقين "فر من المجذوم فرارك من الأسد" فالتشاؤم مذموم شرعا لأنه شك فى المقدر جل جلاله **"وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"** الهاء والميم كناية عن قوم فرعون من سكان مصر ، وجائز أن يكون كناية عن أكثر الناس قال تعالى **"وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"**.

قوله تعالى : **"وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ"**(132).

أي قال فرعون وخاصة قومه لموسى عليه السلام **"مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا"** هذا الخبر من الله عنهم بعد آيات العصا واليد البيضاء التى أصر فرعون ومن معه على أنها سحر ، والسحر تقد الكلام عليه **"فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ"** "الفاء" رابطة لجواب الشرط ، والجملة من المبتدأ والخبر جوابه ، ومعنى الآية أن قوم فرعون قالوا لموسى عليه السلام أننا لا نترك دين فرعون مهما تأتينا به من آيات ، وقامت بها الحجة أن هذا العمل لا يعمله إلا الله تعالى.

قوله تعالى : **"فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ"**(133).

اختلف المفسرون فى الطوفان فمنهم من قال أنه الطاعون ، ومنهم من قال أنه مطر غزير نزل على قوم فرعون فملأ بيوتهم ومنعهم عن العمل ، وكان لا ينزل على بيوت بنى إسرائيل رغم مجاورتها لبيوت الآخرين ، فكان يملأ بيوت ومحلات المصرين ويمكث بها فى السبت إلى السبت ، حتى استغاثوا بموسى عليه السلام فعاهدهم على أن يؤمنوا بما جاءهم به فقبلوا ، فدعا موسى ربه فمنع الأمطار ومكثوا شهرا فى عافية فنكثوا عهدهم وقال بعضهم لبعض كيف نترك دين فرعون لسحر ساحر "والجراد" أرسل الله تعالى عليهم جيوشا كثيفة منه تأكل الرطب واليابس من النباتات والأشجار حتى أكلت أبواب البيوت ودسرها ، وكان المصرى منهم إذا نام علاه الجراد حتى يضعف

([1]) سورة الكهف آية : 17.

عن أن يتحرك من ثقله عليه ، وكان لا يكشفون أناء ولا ينظرون فى بئر ولا فى ماء إلا وجدوه مفعما بالجراد ، فاستغاثوا بموسى وعاهدوه أن يؤمنوا به هذه المرة ، فدعا الله فحوله عنهم ومكثوا أشهرا فى عافية مستمرين على كفرهم ونسوا عهدهم "والقمل" قال بعض المفسرين أنه سوس القمح ، وقال بعضهم أنه حشرة تأكل الحبوب جميعها ، ولما أشتد بهم الجوع استغاثوا بموسى فعاهدهم على الإيمان للمرة الثالثة وسأل الله فدفعه عنهم ولكنهم استمروا على الكفر ، وقال بعضهم هو القمل الحقيقي عمهم حتى جعل أجسامهم كالمجذومة من القروح حتى أكل حواجبهم واشفار عيونهم وما ترك لهم وقتا ولا فراشا إلا خالطه ومازجه حتى أنه افقدهم النوم والراحة فاستغاثوا بموسى فدعا الله فمنعه عنهم بعد أن عاهدوه على الإيمان للمرة الرابعة ، ولكنهم استمروا على الكفر ، فأرسل الله عليهم الضفادع فكانت أكثر ايلاما مما تقدم حتى حبست عنهم الماء لكثرتها وأفسدت عليهم طعامهم وشرابهم وفراشهم حتى كان الرجل إذا أراد أن يأكل لقمة سبقته الضفادع إلى طعامه فأفسدته لأنها ملأت الطرقات والبيوت ، فاستغاثوا بموسى فأذهبا الله عنهم ، كل ذلك ولم يصب بنوا إسرائيل بشئ من هذا الرجز ، وهو أوقع فى الدلالة على أن المراد منه كله زجر فرعون وقومه نقمة من الله على مخالفتهم لموسى عليه السلام.

"والدم" بعد أن عافاهم الله تعالى من الضفادع شهرا وهم على ما هم عليه من الكفر أرسل عليهم الدم ، فصار الماء كله عندهم دما حتى كان فرعون يعصر أوراق الأشجار ليشرب منها فيجدها دما ، وكان المصري يتوجه إلى رجل من بني إسرائيل يلتمس منه شربة ماء فيناوله إياها ماءا صافيا فإذا وضعها على فيه صارت دما عبيقا لزجا ، وكانت المرأة تسأل جارتها من بني إسرائيل أن تضع الماء فى فمها وتسقيها منه فإذا أرادت أن تسقيها من الماء الصافي فى فمها أنقلب دما عبيقا وبنوا إسرائيل متمتعون بالماء الصافي ، فاستغاث المصريون بموسى فرد الله الماء إلى ما كان عليه أولا بعد أن مكثوا من السبت إلى السبت لا يشربون إلا دما عبيقا ، فاستغاثوا بموسى فدعا الله فأغاثهم سبحانه ، ومكثوا شهرا فى عافية مستمرين فى الكفر.

"آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ" أي بعد أن أرسل الله تعالى عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم محسوسا ملموسا يقصم ظهور المعاندين ويثبت صدق موسى فى رسالته من عند الله أبو قبول الإيمان ، والآيات المفصلات هى ما تقدم ذكره وأرسله الله تعالى عليهم **"فَاسْتَكْبَرُوا"** أي امتنعوا كبرا وغطرسة عن قبول ما به سعادتهم فى الدنيا والآخرة **"وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ"** أي كانوا من مرتكبي الجرائم حتى صح المحكم عليهم بأنهم مجرمون.

قوله تعالى : **"وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ"**(134).

ومعني هذه الآية **"وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ"** واشتدت وطأته عليهم **"قَالُوا يَا مُوسَى"** مستغيثين به **"ادْعُ لَنَا رَبَّكَ"** أي أسأل لنا ربك **"مَا عَهِدَ عِنْدَكَ"** أي ما لك من الجاه عنده ، ونتعهد لك **"لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ"** بدعائك ربك **"لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ"** أي لنصدقك فيما جئتنا به من عن ربك **"وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ"** أي لنعطينك الحرية فى قومك لأنهم كانوا يستخدمونهم نصف اليوم في شقاء ، فلما أن بعث الله موسى عليه السلام إليهم وحصل من المصرين العناد والشقاق والإنكار صاروا يستخدمون بني إسرائيل اليوم كله فى شقاء قهرا لهم ، وقد تقدم خبر الله عنهم فى قوله تعالى **"أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا"** فكان سخرة بنى إسرائيل عند فرعون وقومه الذين كانوا يستخدمونهم فى كل أعمالهم الزراعية وغيرها عملا شاقا جدا عليهم ، ولكن قوم فرعون أهلكهم الله تعالى خانوا العهد وفي هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى عن حال فرعون وقومه وعنادهم وخبث طباعهم ،وما كانوا

يرتكبونه من الكبائر الشنيعة كلما أرسل الله عليهم رجزا ليلجئهم إلى الإيمان بإظهار معجزات موسى عليه السلام الدالة على صدقة فى دعواه ، فكانوا كلما أشتد عليهم الخطب استغاثوا بموسى فيدفعه الله عنهم بعد أن يعاهدوه على الإيمان فإذا صرف الله عنهم الرجز رجعوا إلى الكفر ، فإذا أرسل الله عليهم رجزا آخر استغاثوا وعاهوه على الإيمان ثم انقلبوا على وجوههم وهكذا مرارا عديدة حتى دمرهم الله تعالى بالغرق ، انتقاما منهم على نكث عهودهم فى كل مرة يكشف الله عنهم الرجز.

قوله تعالى : **"فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ"**(135).

هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى عن نكث آل فرعون عهودهم فى كل مرة مع تكرار الآيات الدالة على صدق كليم الله ، ومعناها أي **"فَلَمَّا كَشَفْنَا"** أي رفعنا **"عَنْهُمُ الرِّجْزَ"** أي البلاء النازل بهم **"إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ"** أي إلي زمن محدود مقدر عليهم أن يعذبوا فيه برجز من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم **"إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ"** أي يرتدون على أعقابهم مصرين على الكفر وتعذيب بنى إسرائيل.

قوله تعالى : **"فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ"**(136).

"الفاء" هنا للترتيب والنقمة حلول البلاء نعوذ بالله منها **"فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ"** أي آخذناهم بالوقوع فى عذاب الدنيا ، وقد تقدم الكلام على إغراقهم وكيف كان **"فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ"** وذلك لأن الله تعالى أمر البحر بأن ينفلق بعصا موسى ، فنجا هو وقومه من بطش فرعون وما هو فيه من القسوة والمنعة بمن معه من الجيوش ، فاقتحم فرعون البحر بجيشه وراء موسى وقومه فالتطم الماء بعضه ببعض فكان من المغرقين ، ولكن الله تعالى أنجاه ببدنه بأن رفعه فوق الماء بعد موته فالتقطه القوم أو رماه الموج على الساحل فأخذه قومه وحنطوا جسده ودفنوه فى مقبرته الذى أعدها لنفسه قبل موته وكان بعض من لا علم لهم يقولون أن الله تعالى يقول **"فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ"**[1] فأين بدنه ، فأقام الله الحجة بوجود جسمه فى تابوت مكتوب عليه اسمه بلغة المصريين فى زمنه.

"بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ" "الباء" هنا للسببية ، والمعني بسبب أنهم كذبوا بموسى عليه السلام ، وبما جاءهم به من عند الله من التوراة ، وما أقام الله له من المعجزات الدالة على صدقه **"وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ"** أي وكانوا مع وضوح تلك الآيات غافلين عنها بما كانوا عليه من دين فرعون وبما أشربته قلوبهم من الكفر بالله وتكذيب آياته وهى الغفلة الكبرى.

قوله تعالى : **"وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ"**(137).

تقدم قوله تعالى **"عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ"** وهذا وعد من الله تعالى لبني إسرائيل على لسان موسى فكان هذا الوعد هو الكلمة الحسنى التى قالها الله تعالى ، وقد نفذ الله تعالى هذا الوعد كله بما أخبرنا به سبحانه بقوله **"فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ"** "واليم" هو الماء الكبير ملحا كان أو عذبا بدليل هذه الآية ، وبدليل قوله تعالى ""فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم" . واليم بالنسبة لأم موسى هو ماء النيل ، فكان الماء الغزير مطلقا يسمى يما باللغة العبرية.

ومعنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى ملك بنى إسرائيل **"الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ"** أي مسخرين تحت يد فرعون وقومه باستعمالهم فى المهن المخزية وبقتل أبناءهم ، فأورثهم سبحانه وتعالى **"مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا"** "وال" هنا للعهد فيكون المراد بالأرض بيت المقدس من أيدي العمالقة فى آخر زمان موسى أو بعده ، وقد تكون "أل" للجنس ويكون المراد بالأرض أرض فلسطين

([1]) سورة يونس آية : 92.

وسوريا ومصر ويكون ذلك فى زمان داوود وسليمان بحسب ما آل إليه أمرهم **"الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا"** بالعيون الزروع والأنهار والثمار **"وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ"** أي وتحقق وعد الله لهم فى أهلاك عدوهم واستخلافهم فى الأرض ، "والحسنى" مؤنث أحسن "بما صبروا" الباء هنا للسببية أي بسبب توفيق الله لهم على الصبر.

وفى هذه الآية إشارة إلى أن الصابر يظفر بكل قصوده ، فإن من إبتلى فجزع خسر الصبر والرضا ونفذ الله قضاءه رغم أنفه ، ومن أبتلي فصبر فاز بثواب الله على الصبر وتداركه الله بخفى لطفه من حيث لا يحتسب ، وكفى الصابرين شرفا أن الله تعالى معهم ، وفى الصبر على طاعة الله وعلى قدره خير كثير.

"وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ" التدمير هو الإهلاك والمحو ، أي ومحونا ما كان يصنع فرعون وما كان يصنع قومه من تشييد المباني الفخمة المزينة بالإحجار المنقوشة المنحوتة التى لا يزال أثرها باقيا إلى الآن منذ خمسة آلاف سنة نراه كالأهرام والمدن التى ترى تحت طبقات الأرض ، **"وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ"** أي محونا البساتين والكروم ذات الأشجار الملتفة والأعناب المرفوعة على القوائم ، وجائز أن يكون المراد بالعرش السقف المرفوعة عل المباني المشيدة المزخرفة بأنواع الزينات.

وفى هذه الآية برهان على أن الكفر والظلم سببان لخراب الملك مهما طال أمده ، والإسلام والعدل سببا للفوز بالحسينين حسنى الدنيا وحسنى الآخرة ، قال العربي "الظلم أن دام دمر ، والعدل أن دام عمر" . وفى هذه الآيات الشريفة عبرة للمعتبر وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

قوله تعالى : **"وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ"**(138).

أي نقلناهم من الشاطئ الغربي إلى الشاطئ الشرقى بعد أن شققنا لهم البحر فتجاوزوه بعد أن ساروا فيه آمنين مطمئنين على أرض صلبة ، وفيما تقدم من المعجزات الباهرات على صدق رسالة الكليم عليه السلام أوضح حجة لأن الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم كان يصيب آل فرعون فى مصر فحسب ، وكان بنوا إسرائيل يتمتعون بالنعمة والسلامة منها.

"فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ" أي فوصلوا إلى قوم من "لحم" أو من "الكنعانيين" أو "العمالقة" يقيمون على عبادة أصنام اتخذوها من حجارة منحوتة بصورة البقر والعجول فقالوا يا موسى أجعل لنا ألها كما لهم آلهة ،ولم يكن طلبهم هذا شكا فى التوحيد ،ولكن القوم جاءهم إيمانهم بما أظهره الله على يد موسى من الخوارق للعقل مثل العصا وغيرها ولم يكونوا فازوا بالإيمان من طريق الحكمة والبيان ، بل كان من طريق المعجزات الباهرات المحسوسات الملموسات ، ولو أن الإيمان باشر سويداء قلوبهم لفازوا بما فازت به أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأننا والحمد لله منا بالقرآن إيمانا باشر سويداء القلوب حتى تمثلت جمال وجلال وكمال علام الغيوب ،وهذه هى الحكمة التى جعل الله بها محمداع خام النبيين ، فإن الإيمان بالمعجزات المحسوسات لا يتجاوز إنتهاء المعجزة حتى ينسى الإنسان أن يتناسى ، وبنوا إسرائيل لم تجف أقدامهم من ماء البحر حتى نسوا المعجزة وقالوا يا موسى أجعل لنا آلها كما لهم آلهة.

فلله تعالى النعمة العظمي علينا جماعة المسلمين ، فأنا والحمد لله بعد ألف وثلثمائة وخمسين سنة وأكثر وقلوبنا معقودة على كمال التنزية ، وأن كانت الأجسام تتقلب فى الخطايا والذنوب ، وذلك كله بسبب ن معجزتهع العظمي وهى القرآن الذى لا يزال رطبا غضا إذا تلى فى أي زمان تشرق أنواره

على القلوب كأنه نزل الآن ،وكل رسول أيده الله بالمعجزة المحسوسة الملموسة لا تجعل الإيمان بالغيب يقوى حتى ينفذ إلي سويداء القلوب ، ولذلك فإنك ترى أصحاب العارفين بالله أكثر إيمانا وأقوى يقينا وأحسن اتباعا لرسول اللهε ، لأنهم كشف لهم العلم عن مراد الله تعالى من خلقه فسارعوا بتوفيقه إلى محابه ومراضية وعلم القلوب به النجاة من الخطوب فى الدنيا والآخرة لأن الأعمال بالنيات.

"قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ" هذه الآية الشريفة خبر عن قول موسى لقومه معنفا لهم ، ومعنى قوله "تجهلون" ، أى لا تعلمون عظمة الله تعالى وكمال نزاهته عن الشبيه والمثيل والنظير وتفريده جل جلاله بالعبادة دون غيره ، فطلبكم هذا دال على جهالتكم بما يجب عليكم لربكم جل جلاله.

وهذه الآية دليل على أن القوم قبلوا التوحيد تصديقا لموسى عليه السلام ، ولما كانت سابق أيامهم فى أرض مصر قضوها فى شقاء وبلاء من ظلم فرعون لهم وكان كل ما ظهر لهم من موسى عليه السلام هو معجزات باهرات ودعوة إلى الإيمان بالتوحيد من غير بيان تزكو به النفس ، ولا نظر فى تلك الحقائق الكونية لتنبلج آياتها ، وذلك لأن معجزات موسى كانت خوارق لعادات كونية كما قدمت ، وأما معجزات خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام فكانت من لباب الحكمة القرآنية ،ولهذا فإن الله تعالى عمر قلوب أهل الإيمان بنور تنزيهه عن النقائص.

قوله تعالى : **"إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"**(139).

أي هالك ما هم فيه من عبادة غير الله تعالى **"وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"** أي عد لا ينتفع به بل يضر يوم القيامة ، وما هم فيه أي ما هم في شأنه من نحت الأحجار على هيئة البقر والعكوف على عبادتها.

قوله تعالى : **"قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ"**(140).

هذه الآية الشريفة من قول موسى عليه السلام ، "والهمزة" للاستفهام الإنكاري و "غير" بمعنى سوي ، أي أسوى الله أجعل لكم آلها بعد أن أراكم بأعينكم ما رأيتم من عجائب قدرته وغرائب حكمته ، وهو الذى خلق لكم السموات والأرض **"وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ"** ، أي رفع قدركم على العالمين وأعلاكم عليهم ، والمراد بالعالمين عالم أهل زمانهم ، وجائز أن يكون المراد خلقكم أناس مرفوعي الرأس ومستقيمي القامة وخلق لكم لسانا ناطقا وقلبا واعيا وعقلا على الحقائق حاكما يبين الضار منها والنافع وبذلك فضلكم على أنواع المخلوقات كلها ، ففضلكم على النباتات والحيوانات وعلى الأناسي أمثالكم ممن لم يؤمنوا بالله ورسوله ، لأن العالمين جمع عالم ، ولما كانت "الكاف والميم" كناية عن بنى إسرائيل كان المراد حصرا لفضل فيهم على غيرهم من العوالم الأخرى ، وذلك لأنه تقدم قبل بني إسرائيل رسل من أولي العزم وكان لكل رسول أمة آمنت به وهم فى الفضل سواء وخير الأمم أمة خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام ، وهذا التأويل أقرب إلي فهم الآية ، ففيه حجة على بنى إسرائيل أنهم ارتكبوا أكبر خطيئة تثبت جهلهم بطلبهم آلها غير الله.

قوله تعالى : **"وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ"**(141).

تقدم تفسير هذه الآية فى السورة التى تذكر فيها البقرة ، وكررت فى هذا الموضع تعنيفا لبني إسرائيل وتبكيتا لهم على سوء طلبهم من موسى عليه السلام أن يجعل لهم آلها من صنم يعكفون عليه مثل غيرهم ، ومعنى أتيانها فى هذه الموضع أن موسى عليه السلام قال لقومه أذكروا إحسان الله إليكم وفضله عليكم وقد نجاكم من آل فرعون الذين بلغ بهم الظلم مبلغا جعلهم يفعلون ما أخبرنا الله به عنهم فى الآية ليعلمهم عليه السلام ما به تحصل لهم المعرفة بأنفسهم وبربهم جل جلاله.

قوله تعالى : **"وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ"**(142).

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن موسى عليه السلام نذر لله إذا هو أنجاه وقومه من آل فرعون أن يصوم لله ثلاثين يوما فعاهده الله تعالى أنه أن صامهم ينزل الله عليه كتابا فيه أحكام معاشهم ومعادهم ، فلما أنجاه الله تعالى سارع إلى الوفاء بالنذر وتنفيذ وعد الله تعالى له ، وسيأتي فى الآية تفصيل هذا ، ولكن موسى عليه السلام بعد أن أتم ثلاثين يوما فى الهجرة صائما اشتاق إلى مناجاة ربه ، فاستعد لذلك باستياك فمه ، ومضغ بعض أوراق شجر معين لطيب به ، فنادته الملائكة يا موسى أن خلوف الصائم عند الله أطيب من ريح المسك ، وأمره ربه بصيام عشرة أيام تتميما لما نقص منه بسبب الاستياك ومضغ ورق الشجرة ، حكمة خفية وهى أن الله تعالى يعلمنا جمع الأعداد ليبين لنا أنه يخاطبنا على قدر عقولنا ، ويظهر لنا أن القرآن مبين كل البيان لأنه سبحانه قال **"وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ"** ثم جمع فقال تعالى **"فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً"** فإذا كان هذا البيان الجلي الواضح فى القرآن كيف لا يفهمه الناس ، اللهم إلا من أعمي بصائرهم.

"وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ" "وأخلفنى" أي فى مكاني خليفة عنى عاملا بما كنت أعمل "وأصلح" أي داوم على الإصلاح "ولا تتبع سبيل المفسدين" أي ولا تقتد بالمفسدين.

وفى هذه الآية سر يتذوقه العلماء بالله تعالى ، وذلك أن موسى عليه السلام كان يعلم سر التقدير بما علمه الله ، ولم يكن ما يعلمه موسى تفصيلا لتقدير الله تعالى كما يعلم يعقوب ما يحل بيوسف عليه السلام ، فقال لأخواته **"قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ"** لأنه كان يعلم ما يؤول إليه أمر يوسف عليه السلام حيث قال فيما بعد **"اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ"** ولكن تفصيل الأحداث بأياتها وصفاتها أنفرد الله تعالى بعلمه ، وقلوب الأخيار إذا اطمأنت بشرت بخير ، وأن انزعجت أشارت إلى شدائد ما سيكون.

قوله تعالى : **"وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ"**(143).

هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى عما أكرم به كليمه عليه السلام ، وتأويلها أن موسى عليه السلام لما أتم ميقات ربه وكلمه جل جلاله ، واختلف العلماء من أهل السنة والمعتزلة والمتكلمين فى صفة كلام الله تعالى ، وما كان لهم أن يختلفوا بعد أن أخبرنا الله بأنه كلم موسى ، والكلام معلوم والكيف مجهول ، فإن كلام الله صفته ، ومعلوم أن ذاته وأسماءه وصفاته سبحانه وأفعاله تنزهت وتعالت فوق أن تدركها العقول والأرواح ، أو أن تكشف حقائقها الألسنة بالعبارات أو تومئ إليها الإشارات وما علينا إلا أن نسلم لله ولرسوله ،والحمد لله آمنا بأن الله كلم موسى تكليما كما شاء وكيف شاء وقول المعتزلة أنه كلمه بما كتبه فى الألواح أو أنه فى الجهرة أو فى حقائق أخرى مردود ، لأن الله قال سبحانه وتعالى لموسى **"إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي"**[1].

وهذا الخبر لا يكون إلا من المتكلم تنزه وتعالى ، فقولهم سمع الكلام بكل جسمه ، أو سمعه فى كل جهته ، وهذا حكم على الله ، والحكم لله لا عليه ، وكفانا يقينا خبر الله بأنه كلم موسى ، وليس لنا أن

([1]) سورة طه آية : 12 – 13 – 14.

نبحث عن الكيفية ، كما أنه ليس بعد خبر الله تعالى لنا عن أشياء فوق عقولنا أن نبحث عنها ، كما قال تعالى **"الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا"**[1] وقال تعالى **"يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ"**[2] ، وقال تعالى **"ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى"**[3] ، وما أشبهها من أخبار الله تعالى ، اللهم أنا آمنا وصدقنا بما وصفت به نفسك تنزهت وتعاليت سبحانك ، وسلمنا لك كل ما وصفت به نفسك لاكما نحكم نحن عليك.

"قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ" هذه الآية الشريفة بينت لنا قدر صولة الشوق إلى النظر إلى وجه الله تعالى بعد أن شهد موسى من جمال كلام الله ما جذبه بصولة الهيمان إلى طلب النظر إلى ربه فى الدنيا.

ومعنى الآية الشريفة أن هيمان موسى وصولة غرامه جعلته يسأل ربه بما يمكن وقوعه لأن موسى عليه السلام من أولى العزم ولا يسأل ربه إلا ما يجوز نيله ،ولم يسأل هذا السؤال إلا لهيام لا يقوى بعده على صبر ،وفى قوله تعالى "لن تراني" أي لن تراني فى تلك الدار الدنيا وأنت فى مكانك من الكون ، وأستدلال المعتزلة بقولهم أن لن تراني فيه استحالة الرؤية فيه قولان لأن الرؤية ثابتة بتلك الآية لسببين ، أولا لأن موسى يسأل الرؤية وهو لا يسأل مستحيلا ، والثاني أن الله علق الرؤية على استقرار الجبل فى مكانه ، وما تعلق على الجائز فهو جائز ، ولو علق الرؤية على مستحيل لكانت الرؤية مستحيلة ولقال تعالى "لن أري" وقد ورد فى السند ما يدل على جواز الرؤية باحاديث صحيحة ، وأن كان المعتزلة أولوا قوله تعالى **"وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ"**[4] بقولهم أي إلى جميع آلائه أى إلى نعم ربها ناظرة ، وهذا تأويل متكلف ، ورؤية الله ثابتة شرعا وعقلا فإن العبد الكامل الإيمان لا يعبد من لم يره فإنه يرى ربه بعيون بصيرته رؤية موقن بكل ما وصف به سبحانه نفسه منزها لذاته عن الكم والكيف والتحديد والعد والشبيه والمثيل والنظير.

قوله تعالى **"وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ"** وهو مخلوق يجانسك فى عناصره رغم جماديته وضخامة حجة **"فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ"** ولم يصبه تغير وتحول **"فَسَوْفَ تَرَانِي"** الفاء فاء الترتيب وسوف تفيد التسويف البعيد وفى ذلك إشارة إلى عدم استعداد موسى تحمل ثقل رؤية ربه فى زمنه وحالته التى هو عليها وقت طلب الرؤيا **"فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ"** أي أظهر له بصيص يسير من نور جلاله وكبريائه وعظمته وهيبته **"جَعَلَهُ دَكًّا"** أي محاه محوا وسواه بالأرض **"وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا"** لمجرد رؤيته لما حدث للجبل وتمثله ما كان سيحدث له **"فَلَمَّا أَفَاقَ"** من حال الصعق الذى غشاه **"قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ"** أي تنزهت وتقدست جل جلالك تبت من أن أسألك ما لا أطيقه **"وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ"** بأن لكل رسول مقامه ، ولكل عطاء زمانه ، ولكل مقام رجاله.

وهنا أقول أن الله تعالى إذا تفضل على عبد بأن يشهده مشهدا عاليا منحه القوة والاستعداد والقابل كما منح موسى القوة على سماع كلامه العزيز، وكما أكرم حبيبه محمدع بالنظر إليه جل جلاله عند ربه سبحانه ، فكان مما ثبته به وقواه أن طلب المزيد من الله ، ولما لم يقو موسى على النظر إليه صعق عند نظر بعض آياته الكبرى ولم يثبت ، وشتان بين العاشق موسى الذي تعجل إلى لقاء ربه وبين المعشوق محمدع الذى عجل الله برفعه إليه ليريه حيث كان فى مقام أو أدني بمحو ما بينهما من البين ووقوع العين على العين بتقوية الله له على تحمل هذا المقام الأعلى.

([1]) سورة الإسراء : 1.

(2) سورة الأنبياء آية : 69.

(3) سورة النجم آية : 8 – 9 –10.

([4]) سورة القيامة آية : 23 – 24.

وتستطيع أن تقول فى معنى هذه الآية فلما ظهر ربه للجبل بما قدمنا **"جَعَلَهُ دَكًّا"** أي "دك" الله تعالى الجبل بما ألاحه له فنسب دك الجبل إليه سبحانه **"وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا"** أي خر ميتا ، فنسبه إلى موسى لتقوم الحجة عليه ، إذ لو نسب صعق موسى إليه سبحانه لكان موسى قد فنا عن وجوده ، والفاني لا يدرك تلك الحقائق فثبته الله فى مقام الرسالة التى تستلزم وجود القوى الإنسانية ليدرك ما يراد به **"فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ"** أي فلما أعاد الله له حياته بعد صعقة قال "سبحانك" أي علوت عن أن يسألك عبدك بغير أذنك وإرادتك ، وارتفعت عن أن ترى فى تلك الدار الدنيا إلا لمن اصطفيته للرؤية وطلبته لها ، ولم يطلبها هو لنفسه "والتنزيه" هو البعد فى الصحارى ، ومعناه بعد الله عن النقائض ، **"تُبْتُ إِلَيْكَ"** أي تبت مما ارتكبته بسؤالي رؤيتك من غير أمرك ، وهذه التوبة مقتضى مقام موسى عليه السلام فأن الصغيرة منه كالكبيرة من الأبرار ، فسؤال موسى من ربه النظر إليه من غير أذنه كبيرة بالنسبة لمقامه يجب عليه أن يتوب منها **"وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ"** أي المصدقين بأنك سبحانك لا ترى فى الدنيا إلا لمن اصطفيته فى الدنيا ، وموسى عليه السلام إذا سأل الرؤية فإنما يسأل رؤية خاصة لا كالرؤية التى يراه بها أولياؤه بالبصائر فى الدنيا ، فأن هذه رؤية عامة يختص الله بها من يشاء من أهل مقام الإحسان والإيقان تطمئن بها قلوبهم وتصفوا بها مشاهدهم لآيات الله تعالى وتعلو بها هممهم فى طلب الله تعالى والفرار إليه جل جلاله، فظهر الفرق بين طلب موسى الرؤية وبين حصولها لبعض أولياء الله الأخيار.

قوله تعالى : **"قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ"**(144).

"قال" استئناف ، والآية الشريفة تسلية لموسى بعد منعه من الرؤية مبينا له جلائل النعم التى تفضل سبحانه بها عليه ليسارع إلى شكر الله على ما أصطفاه به على الناس **"اصْطَفَيْتُكَ"** أي جعلتك صفوة الناس ، ولم يقل على الخلق لأنه من الخلق الملائكة ومنهم من مع الله مكافحة ، وفى قوله **"عَلَى النَّاسِ"** بيان أن الله تعالى أختص موسى عليه السلام بفضل لم ينله أحد من الرسل قبله ، وهو الكلام كفاحا من غير حجاب ولا وساطة وذلك لم يكن لأحد من الرسل وأن اصطفاهم الله بالرسالة ، و **"بِرِسَالَاتِي"** أي ببعثه رسولا إلى بني إسرائيل يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته ، وإلى فرعون وقومه يدعوهم إلى توحيد الله وإلى أن يرسل معه بني إسرائيل **"وَبِكَلَامِي"** أي بكلام الله لموسى بن عمران سماعا من الله تعالى ، ولولا قول موسى عليه السلام لربه **"أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ"** لفهمنا وقوع الرؤية بطبيعة خبر الله تعالى لنا أنه كلم موسى ، وقد تقدم بيان معني الكلام **"فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ"** أي فخذ ما تفضلت به عليك من نعمتي الرسالة والكلام وما أظهرته على يدك من الآيات والبيانات عاملا بما أمرتك به شاكرا نعم الله عليك ومسارعا إلى علم ما أمرتك ، فأن الشكر عمل بالقلب والجوارح واللسان قياما بما أوجبه الله تعالى على العبد ، و "من الشاكرين" أي المسارعين إلى محاب الله تعالى ومراضية.

قوله تعالى : **"وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ"**(145).

اختلف العلماء فى حقيقة الألواح فقال بعضهم أنها من زمرد أخضر ، وقال بعضهم أنها من ذهب ، وقال بعضهم أنها من صخرة من الجبل الذى ناجى عليه الله موسى ،ويظهر أنها من خشب أنزلت من السماء وأنا نؤمن أن الله كتب لموسى الألواح ، ونسلم له سبحانه وتعالى خبره الذى أخبرنا به ، واختلفوا فى عددها فمنهم من قال سبعة ألواح ومنهم من قال عشر ألواح ومنهم من قال سبعون لوحا والله أعلم بالحقيقة.

وتأويل هذه الآية أن الله تعالى كتب فى الألواح لموسى **"مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ"** ، والموعظة والتفصيل تقدم الكلام عليهما بمعنى أن التفصيل هو البيان الجلي ، والموعظة هى النصح بالخير ،والتذكير بالعواقب.

قوله تعالى **"فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ"** أي بعزم على العمل بما فيها وهمة عليه فى تبليغها لقومه . قوله تعالى **"وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا"** أي وكلف قومك أن يعملوا بأحسنها وكلها أحسن ، ولكنها تحتوى على عزائم ورخص ، والأولى لهم أن يأخذوا بالعزائم عند مقتضياتها ، والعمل بالرخص عن مقتضياتها عزائم فلا يتركوها تشددا على أنفسهم.

"سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ" أي الذين سادوا وشادوا فطغوا وبغوا وكذبوا رسلهم فأهلكتهم بكفرهم بى وبتكذيبهم بآياتي حتى تكون عبرة لمن معك ولمن بعدك و "دار الفاسقين" هى دار العمالقة والكنعانيين وفرعون ومن سار على دربهم فى كل زمان ومكان إلى يوم القيامة.

قوله تعالى : **"سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ"**(146).

تأويل هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يخبرنا أنه "يصرف" أي يمنع عن فقه آياته سبحانه وتعالى وقبولها والعمل بها الذين يتكبرون فى الأرض أي لا يقبلون الإيمان ويتكبروا عن قبوله "والأرض" هنا كل أرض بعث الله لأهلها رسولا يدعوهم إلى توحيده وعبادته ، ومعنى قوله تعالى "بغير الحق" أي يتكبرون بالباطل الذى هم عليه من عبادة الأوثان ومن التقليد الأعمى للآباء فيتعصبون لدين آبائهم ولما عدلوا به من الألهة الباطلة والمذاهب المضلة والآراء المفسدة.

"وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا" ، وصف الله الذين يصرفهم عن آياته بأنهم يتكبرون فى الأرض بغير الحق ، وبأنهم إذا رأوا باعينهم وبعقولهم كل آية بينة دالة على توحيد الله وتفريده بالعبادة دون غيره وعلى تصديق رسله ، بل وما فى الكون وفى أنفسهم من الآيات الدالة على أن الله هو الذى أوجدهم وأمدهم بقدرة وحكمة ، هؤلاء الذين أخبرنا الله عنهم وحكم عليهم بأنهم لا يؤمنوا بكل الآيات التي يرونها لأنه ختم على قلوبهم وأصم عن الحق آذانهم وأعمي عن نظر العبرة أبصارهم مع وضوح الآيات وقيام الحجج المحسوسة الملموسة للبصر والبصيرة.

"وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا".

هذه الآية الشريفة من صفات الذين صرفهم الله عن آياته فصاروا لا يقبلونها ولا يعملون بها ، ومن صفاتهم أيضا أنهم إذا رؤا سبيل الرشد أي مناهج الشرع مبينة واضحة صريحة عدلوا عنها ، كما قال تعالى "لا يتخذوه سبيلا" أي لا يسلكون عليه ولا يتبعونه "والرشد" هو الشريعة والحكمة والنور الذى من سلك عليه فاز بالحسنين ومن استضاء به وصل إلى الله تعالى وأن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا" ، "أن" شرطية "يروا" فعل الشرط "يتخذوه" جوابه ، ومعنى الآية أن هؤلاء القوم الذين صرفهم الله عن آياته إذا رأوا سبيل الضلالة والكفر سارعوا إليه وسلكوا عليه حتى الهلاك.

"ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ" الإشارة عائدة إلى ما أخبرنا الله به عنهم من صرفهم عن آياته سبحانه ، ومن تكبرهم وامتناعهم عن قبول الإيمان ، ومن مخالفتهم لسبيل الرشد واتباعهم لسبيل الغي بسبب أنهم "كذبوا بآياتنا" الواضحة الجلية تعصبا لما هم عليه من الضلال ، مع أن قلوبهم أو تجردت من الحظ والهوى ومن مرض العصبية الباطلة لشهدوا أنوار الحق وآياته جلية ، ومعنى قوله تعالى ، "وكانوا عنها غافلين" أي فى لهو بما شغل قلوبهم وأفكارهم من الكفر والضلال ، فلا يتفكرون إلا فيما قبلته قلوبهم من الجحود والكفر والعدول بالله غيره "والغفلة" هى اللهو وترك التفكر

فى آيات الله والاعتبار بما فى الكون وفى أنفسهم من بدائع إبداع صنعه ومن عجائب حكمته جل جلاله.

قوله تعالى : **"وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"**(147).

هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى عن الذين كذبوا بآيات الله المنبلجة فى أنفسهم وفى الآفاق وبرسله وبما أنزله عليهم ، وهم الذين حجبت أجسامهم البشرية أرواحهم عن مطالعة الغيب المصون ، وأن التصديق بآيات الله والإيمان بالآخرة حظر على الأشباح البشرية أن تقبله لوقوفها عند الحس ، ولا يقبل هذا العلم العلي إلا الأرواح الطاهرة ، لأن الإنسان جمع الله فيه حقائق العوالم كلها ، فقد يكون ظاهره وحشا كاسرا وباطنه شيطان نافر ، أو ظاهره رق منشور الصفات وباطنه نفخه القدس وشتان بينهما.

قوله تعالى **"وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ"** ، هذا حكم الله على من كذبوا بآيات الله ولم يؤمنوا بلقاء الآخرة ، المصدر هنا مضاف لمفعوله والتقدير لقائهم الآخرة "حبطت أعمالهم" أي لم ينتفعوا بثوابها ،وهذه الأعمال التى حبطت هى عدولهم بالله تعالى غيره وعبادتهم الأوثان ، وبذل الأموال والأنفاس فى سبيلها مع كفرهم بالله وبرسله عليهم السلام ، وتلك الأعمال كانوا يظنون أنها تنفعهم فى معاشهم ، فكانت عليهم عذابا ، قوله تعالى **"هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"** ، أي أن هؤلاء لا يجزون إلا بجزاء ما عملوا.

قوله تعالى : **"وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ"**(148).

تأويل هذه الآية أن السامري وجد عند بنى إسرائيل ما أخذوه من نساء المصرين قبل خروجهم من مصر كيدا لهن بزعم أنهن يزين به بناتهن فى ليلة زفافهن ، ثم خرجوا ،وأهلك الله فرعون ومن معه ، وهذا الحلي المأخوذ بالخداع والكيد ، جعله الله سببا فى كفرهم بالله تعالى ، وهكذا كل ربح نتج عن معاصى الله تعالى ينتج شرا ، وكان السامري معتدا به فى قومه ، فلما خرج موسى لمناجاة ربه انتهز السامري الفرصة فعد العشرين يوما بالياليها أربعين يوما ، ثم أخبرهم أن موسى مات ، وأمرهم بجمع الحلي ، وكان صائغا فصنعه عجلا مجوفا ووضع فيه أنابيب ، وجعل له فما واسعا يخرج منه الريح فيمر من الأنابيب فيكون له خوار يشبه خوار العجل ،ثم قال لهم أن هذا آلهكم وآله موسى فأطاعنه قومه وعبدوا العجل إلا هارون ، وقيل أن مع هارون بعض بني إسرائيل لم يعبدوا العجل.

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى يقول **"وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى"** أي أتخذ السامري وتابعه قومه فصاروا جميعا قد اتخذوا ، **"مِنْ بَعْدِهِ"** أي من بعد توجهه لمناجاة ربه **"عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ "** الذى صنعه لهم السامري.

وفى الآية إشارة خفية أن كل إنسان له عجل يعبده ، ولا يسلم من عبادة العجل إلا من قتل نوازع نفسه بقوة الإرادة ، ولا يفوز فى معركة الإرادة إلا من جاهد نفسه فى ذات الله حتى يكون بشرا فانيا عن مقتضيات بشريته ، وبذلك يسلم من عبادة العجل المتمثل فى جسده ، وكان السامري قد رباه جبريل ، فقال بعض المفسرين أن السامري رأي جبريل يوم غرق فرعون فأخذ قبضة من تحت حافر فرسه ، فصنع بواستطها ذلك العجل الذهبي ، وفى رأي أن السامري كان أدرى الناس بميول قومه إلى حب مادة الذهب ، فصنع لهم جسد العجل من الذهب الذى أخذته نساؤهم من المصريات بالخداع والغدر ، فعبدوه إشارة إلى ميل نفوسهم إلى عبادة الماديات المحسوسة الملموسة.

قوله تعالى **"أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ"** هذه الآية الشريفة تفصيل لما أجمله فى آيات اقتضاها سياق الخبر منه سبحانه وتعالى فى قصص الأنبياء عليهم السلام لحكمة أقلها التذكير بتلك الحوادث العظيمة للعبرة والموعظة ، وفى كل آية قدر غيب يظهر ، وأجمال يفصل ، وسر يتضح لقول الله تعالى **"وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ"**[1].

وفى الآية استفهام للتعجب ، فعجيب جدا أن بنى إسرائيل مع ما تفضل الله به عليهم من الآيات والحجج والنعم الغزيرة التى لا تحصى ، وبعد أن قام كليم الله فى وجه فرعون يأمره بتوحيد الله تعالى وعبادته ، وينهاه عن عبادة الأغيار من الأوثان والكواكب ، يبلغ بهم ظلمهم لنفسهم وجهلهم برسالة نبيهم أن يعبدوا ما صنعوه بأيديهم ، مما يفقدهم صفات الحيوان فضلا عن صفات الإنسان ، ولكن إذا ظهر السبب بطل العجب ، فإن القوم كما قدمت لك ، أقام الله لموسى الحجة بمعجزات محسوسة ملموسة فقوى حسهم قوة حجبت أنوار الروح عن اتصالها بالعالم الأعلى حتى تقبل عن الله ما جاءهم به موسى عليه السلام ، ومعنى قوله تعالى "لا يكلمهم" أن هذا العجل لم يمنح صفة الكلام التى بها كان الإنسان أكمل أنواع المخلوقات التى سخرها الله له لقواه العقلية ولقوة النطق وعجل لا يتكلم كلاما يهدى به الله تعالى من يشاء فى معاشه ومعاده حتى أنحط عن رتبة الإنسان الساذج فضلا عن الإنسان الكامل ، كيف يكون آلها يعبد من دون الله الخالق لكل شئ.

"اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ" . أي اتخذوه آلها وعبدوه وكانوا فى اتخاذهم له آلها ومعبودا ظالمين لأنفسهم مهلكين لها بعد ما أظهره الله تعالى على يد موسى عليه السلام من المعجزات ما به يهتدي من له مسحة عقل.

قوله تعالى : **"وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ"**(149).

"سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ" مثل يضرب لمن دفع نفسه فى هاوية ، ومعناه أنهم ندموا ندما حتى عضوا على أناملهم أو ضربوا على أفخاذهم فسقطت من الندم ، والجملة مثل يضرب لمن وقعوا فى ندم شديد ، وقوله تعالى **"وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا"** أي وتحققوا أنهم بعبادتهم العجل قد ضلوا أي هلكوا ، **"قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ"** الجملة استئنافية وهى خبر من الله تعالى عن اعتراف بني إسرائيل بالخطيئة وندمهم على ما ارتكبوه من عباده العجل ، ومعناها لئن لم يرحمنا ربنا فيقبل توبتنا **"وَيَغْفِرْ لَنَا"** أي يستر ذنوبنا ويطهرنا منها **"لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ"** أي من الذين خسروا أنفسهم فخسروا الدنيا والآخرة.

قوله تعالى : **"وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"**(150).

"الأسف" هو شدة الغضب لقول الله تعالى ، **"فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ"**[2] أي أغضبونا غضبا شديدا ، والأسف بالنسبة للخلق هو الحزن الشديد، فأن من أحزنك وهو قادر عليك حصل لك الأسف وهو الغضب ، ومن أساءك وأنت فوقه قاهر له غضبت عليه ، وقوله تعالى **"وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا"** أي غضبانا عليهم حزينا بالنسبة لكفرهم بالله فقد رجع من مناجاة ربه بعد أن أخبره الله تعالى بعبادة قومه للعجل كما سيأتي خبره فى سورة طه.

([1]) سورة الحجر آية : 21.

([2]) سورة الزخرف آية : 55.

"قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي" والمعنى قال موسى لقومه بئس العمل الذى عملتموه من عبادة العجل من بعدى ، أى من بعد أن قمت فيكم مبينا لكم شرائع الله التى يحبها منكم ، وليس المراد من بعد غيبتي لأنها معلومة من قوله خلفتموني وقوله ""أعجلتم أمر بكم" "العجلة" هى فعل الشئ قبل وقته من غير انتظاره "والسرعة" فعله فى وقته دون أمهاله ومعنى "أعجلتم أمر ربكم" أي وعده وأمره فخالفتموه وعبدتم غيره وأنتم تعملون أن ميعاد ربى أربعين يوما ، وقد عبدتم العجل قبل نهايتها ، قوله تعالى **"وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ"** أي ألقاها على الأرض مغضبا ، فتكسر منها ما فيه الآداب والأخلاق والحكم ،ولم يبق سليما إلا ما فيه الأمر والنهي من الكلمات العشر وغيرها من الأحكام.

قوله تعالى **"وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ"** يعنى أخذ يجذبه إليه من عنقه ، وكان موسى عليه السلام شديد الحدة عند غضبه لله ، وظن أن هارون عليه السلام تهاون في نصيحة قومه وهم أن يضربه بالعصا التي فلقت البحر ، فاستعطفه هارون بسرعة عاجلة **"قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"** ، وتأويل هذه الآية الشريفة أن هارون وأن كان شقيقا لموسى عليه السلام إلا أنه ناداه بقوله يا بن أم استر حاما وجلبا لعطف قلبه عليه قائلا له **"إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"**.

وفى ذلك خبر عن ميل هارون لموسى عليهما السلام ، ومعناها أن هارون وقف أمام القوم وقفة مرشد حكيم بالموعظة الحسنة والحجة البالغة فأبوا أن يقبلوا منه حتى بلغ مبلغا خشي على نفسه فيه القتل ، وكان يعلم أنه إذا قتل تفرق بنوا إسرائيل إيما تفرق ، فصبر حتى يرجع إليه موسى عليه السلام رحمة بهم وحرصا على إنابتهم إلى الله تعالى "فلا تشمت بي الأعداء" الخطاب من هارون إلى موسى عليهما السلام رجاه أن لا يشمت به الأعداء "وقرئت فلا تشمت بي الأعداء" بفتح التاء والفاعل موسى "ولا تجعلني مع القوم الظالمين" الخطاب لموسى عليه السلام أيضا أي لا تعدني مع القوم الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بعبادة العجل فقد قامت لك الحجة ووضحت المحجة أني جاهدت فى ردهم عن عبادة العجل ولولا " **إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي"**[1] لكان مالا يرضيك لولا انتظاري حضورك.

قوله تعالى : **"قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ"**(151).

هذه الآية خبر من الله تعالى عن قول موسى عليه السلام بعد أن تحقق طهر هارون عليه السلام مما كان يظن به ، ومعنى هذه الآية أن موسى عليه السلام سأل ربه **"قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي"** أي أستر ذنبى الذى وقع مني مع هارون عليه السلام ،وأغفر له ضعفه مع عبده العجل **"وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ"** أي تفضل علينا بأن تجعلنا ممن خصصتم برحمتك الخاصة وأنت أرحم الراحمين.

في هذه الآية الشريفة دعاء من موسى عليه السلام وبه ثناء على الله سبحانه وتعالى بيانا منه عليه الصلاة والسلام للآداب التى يستجيب الله بهما دعاء الداعين ، فإنه يبين للداعي أن يفتتح دعاءه بالثناء على الله تعالى ويختمه كذلك بالثناء عليه سبحانه ،ومعلوم أن الرحمة بالنسبة للخلق هى رقة فى القلب تقتضي العطف على المرحوم ، والرحمة بالنسبة للجناب المقدس هى إرادة الله تعالى الخير للعبد فى الدنيا والآخرة . وفى قول موسى عليه السلام **"وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ"** إشارة إلى أن الراحمين غير الله تعالى رحمتهم معللة بنسب أو قرابة أو طمع فى محبوب ، ورحمة الله تعالى فضل منه وإحسان

([1]) سورة طه آية : 94.

يخص به من يشاء ، فهو سبحانه أرحم الراحمين من حيث حقيقة الرحمة ، ومن حيث إسداؤها فهو جل جلاله أرحم الراحمين حقا.

قوله تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ"**(152).

العجل هنا مفعول أول ، والمفعول الثاني محذوف تقديره آلها معبودا من دون الله **"سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"** أي سيصيبهم بعد اتخاذهم العجل عذاب وخزي ، أما العذاب فقتلهم أنفسهم ، وأما الذل فخزيهم بعملهم السيئ ، وإذا كان المراد بهم من اتخذوا العجل من قوم موسى عليه السلام فى عصره وتكون الآية مما أخبر الله به موسى عند مناجاته لأن قومه اتخذوا العجل أثناء غيابه وأنهم سينالهم غضب وذلة من ربهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، وأن كان المراد بهم يهود بني قريظة وقينقاع الذين عاصروا رسول اللهε فتكون نسبة اتخاذ العجل إليهم كعادة العرب من ذم الخلف بفعل السلف فصح سياق الآية بعد قبول الله تعالى توبة من اتخذوا العجل ، وصح دخول السين على فعل ينالهم.

وجائز أن يكون في الكلام حذف مضاف التقدير أن أبناء الذين اتخذوا العجل سينالهم الخ الآية ويكون قوله تعالى فى الحياة الدنيا متحقق فى كل تأويل من التأويلات المتقدمة ، فإن قريظة وقينقاع نالهم الغضب بالجلاء من المدينة وذل بما ضرب عليهم من الجزية فى الحياة الدنيا ، وهم أبناء الذين اتخذوا العجل . **"وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ"** أي وكما جزينا بالغضب والذلة من أفتري على الله الكذب ياتخاذ العجل آلها يعبد من دونه كذلك نجزى كل من افترى على الله فرية من أهل البدع المضلة والأهواء المذلة وهى من أشد مخوفات القرآن المجيد ، ومعناها أن الله تعالى يغضب ويوقع فى الذل والخزى كل مبتدع على الله كذبا أعاذنا الله تعالى من مخالفة السنة المطهرة.

قوله تعالى : **"وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ"**(153).

هذه الآية الشريفة بشرى لكل المذنبين لأنه سبحانه يخبرنا بقبول توبة كل مذنب لا فرق بين الصغيرة والكبيرة من كفر أو غيره كما قبل توبة من عبدوا العجل ، وتأويل الآية **"وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ"** أي وقعوا فى ارتكاب المعاصى "وآل" فى السيئات للجنس الشامل للكبائر والصغائر **"ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا"** أي وبعد أن وقعوا فى السيئات وانتهي زمنها تابوا إلى الله تعالى ، وقد سبق الكلام على التوبة فيما تقدم "وآمنوا" أي صدقوا أن الله تعالى يغفر الذنوب جميعا ويقبل توبة كل تائب إليه معتقد أن الله تعالى لا تضره السيئات وأن كثرت ، ولا تنفعه الطاعات وأن عظمت **"إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ"** فى هذه الآية تمام البشرى للمذنبين وأكد الجملة "بأن" لتقوية الخبر ، وأتي بلام التوكيد فى المغفرة لزيادة التقوية "أن ربك" أي الغفور الكريم الذى قدر الأقدار بحكمته أي من بعد عمل السيئات والمسارعة إلى التوبة والإيمان "لغفور" أي واسع المغفرة ومن سعة مغفرته أنه يبدل السيئات حسنات "رحيم" الرحيم هو الذى يفيض الخير لعباده يوم القيامة حتى يمنحهم رضوانه الأكبر ، والرحمن هو الذى يفيض الخير لعباده فى الدنيا , وقال هنا "رحيم" إشارة إلى أن المغفرة والرحمة يتحققان يوم القيامة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتي الله بقلب سليم.

قوله تعالى : **"وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ"**(154).

هذه الآية الشريفة بيان من الله تعالى عن حال موسى عليه السلام بعد زوال غضبه ، كما سبق وبين لنا حاله أثناء الغضب ، وجائز أن يكون تأويل الآية ، ولما سكت موسى عن الغضب أي لما ترك الكلام فى الغضب أخذ الألواح بعد أن ألقاها على الأرض فى حال غضبه "والألواح" هي التي سبق ذكرها.

وجائز أن يكون المعنى أن الغضب كان يتكلم ، فيقول له الق الألواح على الأرض وأجذب أخاك من لحيته وجره إليك ، فلما اعتذر هارون عليه السلام وأقام الحجة البينة على براءته مما يغضب موسى سكت الغضب عن موسى وتكلم الرحيم ، وليس فى هذه الآية استعارة فقوله تعالى **"أَخَذَ الْأَلْوَاحَ"** أي تناولها من الأرض ، وفى الآية حذف تقديره وهذه الألواح **"وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ"** أما الهدى فهو البيان والنور الذى يكشف أسرار الشرع الشريف ويبين أحكام الله تعالى ، وأما الرحمة فهى تفضل الله تعالى على عباده بما به بيان الفضيلة والأخلاق والعلوم النافعة فى المعاش والمعاد ، وقوله **"لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ"** معنى هذه الآية أن الألواح فى نسختها هدى ورحمة خاصان من الله تعالى لقوم أمدهم الله تعال بروح ملكوتيه تجانس العالم الأعلى ، فتلحظ من وراء الكون سواطع أنوار العظمة والعزة والكبرياء فيحصل لها الرهبة لربها ، والرهبة فوق الخشية ولا تكون إلا بعد عين اليقين لأنها من صفات الرسل عليهم الصلاة والسلام قال تعالى **"وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا"**[1] والله تعالى يتفضل بها على من سبقت لهم الحسنى من لدنه وفى قوله تعالى **"لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ"** أي أن رهبتهم خاصة لربهم لا لقصد آخر.

قوله تعالى : **"وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ"**(155).

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن القوم لما عبدوا العجل أمر الله تعالى موسى أن يختار من قومه سبعين رجلا ليناجي ربه معهم مستشفعين لقومهم عند الميقات الذى يناجي فيه ربه ، وتأويل هذه الآية الشريفة أن موسى اختار من قومه سبعين رجلا بأمر الله تعالى "قومه" منصوب على نزع الخافض وهو الأداة من بمعني "من قومه" "سبعين" مفعول به "لميقاتنا" أي للمكان الذى جعله الله للمناجاة **"فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ"** لهول الموقف و "الرجفة" قال بعضهم هى فقد الحس والحركة وتمثل ما فوق النوم الاستغراقى ، وقال بعضهم هى الموت بدليل قوله تعالى فى سورة البقرة **"فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ"**[2] و **"أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ"** والمعنى فين ما أخذتهم الرجفة أخذت الرحمة بمجامع قلب موسى على قومه جميعا من أثر ذلك الفاجعة الكبرى ، فوقف يلتمس من ربه سبحانه وتعالى العطف على قومه بما آتاه الله من قوة البيان والاستغاثة كاشفا غوامض العلم المكنون من أثبات تفرد الله تعالى بالإيجاد والإمداد ، ومن أنه سبحانه وتعالى واحد فى ذاته وفى أسمائه وصفاته وف أفعاله ومشيئته والقدرة والحكمة صفتاه ، قال "رب" أي يارب ن وهذا نداء المستغيث بجمال الله تعالى من جلاله وبفضله من عدله ،لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام أكمل الخلق أدبا مع الله تعظيما له سبحانه "لو شئت" أي لو أردت إهلاكهم لأهلكتهم "اللام" هنا للقسم "وأهلكتهم" أي أمتهم "من قبل وإياي" قبل هنا بنيت على الضم لحذف الإضافة ورعايتها أي من قبل عبادة العجل "وإياي" أن أهلكتهم وأهلكتني معهم .

([1]) سورة الأنبياء آية : 90.

(2) سورة البقرة آية : 55.

"أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا" أي أتميتنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل ، على القول بأن بعض بنى إسرائيل عبدوا العجل وبعضهم لم يعبده ، وعلى القول بأنهم جميعا عبدوا العجل فأزاد بالسفهاء موسى السامري ومن صنعوا العجل معه.

وهنا إشارة خفية تومئ إلى أن الذين هلكوا سبعون رجلا منهم فكيف يقول موسى "أتهلكنا" إذا أراد السبعين الذين معه ، فإن أراد جميع بني إسرائيل ظهرت تلك الإشارة وهى أن موسى إذا رجع إلى بني إسرائيل وأخبرهم أن السبعين أهلكهم الله ارتدوا عن الإسلام جميعا وكانت فتنة عظمي ، أو قتلوا موسى ووقفوا يحاربون بعضهم فكان الهلاك الجامع.

"إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ" "أن" هنا بمعنى "ما" النافية ،والمعنى ما هى إلا فتنتك أى ابتلاؤك وامتحانك واختبارك لعبادك وتلك الفتنة "تضل بها من تشاء" أي تهلك بها من تشاء "وتهدي بها من تشاء" ، أي تحى بها الحياة الروحانية منتشاء من عبادك تنفيذا لما سبق فى قدسك فأنت الفاعل المختار سبحانك ن وهنا لطيفة وهى أن موسى لما وجد هذا الوجد الروحاني الذى دفعه أن يسأل ربه أيقن بالإجابة ، لأن الله تعالى إذا يسر الدعاء لعبد يسر له اليقين بالإجابة ، وأن الدعاء دليل انشراح الصدر ، ومتى شرح الله صدر العبد فألهمه الدعاء أسرع فى الإجابة لذلك قال موسى ما أخبرنا الله به عنه وهو قوله **"أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ"** "الولي" هو من يتولى عباده بتأيده وإحسانه وهذه الولاية العامة ، فكما أنه سبحانه رب كل شئ ، فهو ولى كل شئ والله تعالى رب فرعون ونمرود وان جهلا ربوبيته عليهما.

أما الخاصة التى يعنيها موسى عليه السلام فهى إرادة الله الخير الروحاني لموسى وقومه ن توفيقهم لمحابه ومراضية سبحانه ، ومن قبولهم الإيمان ،ومن كمال الأدب لربهم جل جلاله ، فلا يسألونك الرؤية لأدبهم **"فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا"** "الغفر هو الستر ، ومعنى الآية فاستر ذنوبنا حتى لا نراها ولا يراها أنس ولا ملك فى الدنيا ولا فى الآخرة "وارحمنا" أي أن امنحنا خيرات الكون بأن تنجي قومي من رجفتهم وأن تسبغ على وعليهم نعمتك بوسعة حتى تحفظنا وقومنا من الفتن المضلة والأهواء المذلة **"وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ"** لما كان الله تفضل على بعض خلقه فجملهم بجمال صفاته التى منها العفو عمن أساء والمغفرة لمن ظلم كانوا موصوفين بصفات الغافرين ، فموسى يستعطف ربه المغفرة بقوله وأنت يارب خير الغافرين أي أنك أنت الغفور بذاته المتفضل على خلقه بصفات العفو ، فالغافرون مظاهر أسمك الغفور وأنت الغفور ، فأنت خير الغافرين ، وليس المراد أن مغفرة الله كمغفرة خلقه ، وإنما المراد أن الله تعالى هو الغفور بذاته ، المتفضل على من يشاء بجمال المغفرة ، والله تعالى جمل كثيرا من خلقه بمعاني صفاته إحسانا منه إليهم.

قوله تعالى : **"وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ"**(156).

هذه الآية الشريفة من دعاء موسى ربه بعد أن قدم الثناء لله بقوله **"أَنْتَ وَلِيُّنَا"** ثم طلب منه سبحانه المغفرة ، وهى ستر الذنوب والرحمة كما قدمنا ،وهنا يطلب منه سبحانه أن يكتب له **"فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ"** ، والحسنة فى الدنيا أن يوفقنا سبحانه وتعالى لمحابه ومراضية وأن يمنحنا جل جلاله العافية والقوت والأمن ، وفى الآخرة أن يغفر لنا ذنوبنا ويبدلها بإحسان منه جل جلاله ، وأن يدخلنا روضات الجنات بحسب ما بلغه كل إنسان من العلم واليقين والعمل الصالح بفضل الله تعالى **"إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ"** أي تبنا إليك فإن عنى "هاد" أي رجع ، وكان يراد بها المدح قبل أن تنسخ شريعة موسى عليه السلام ، وأما الآن فصارت كلمة ذم.

"قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ" "قال" استئناف "وعذابي" الذى أصيب به السبعين الذين أخترتهم بالرجفة أصيب به من أشاء من عبادي فى الدنيا أو فى الدنيا والآخرة **"وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ"** "والرحمة" هى إرادة الخير الكوني لمن شاء الله "وسعت كل شئ" على هذا التعريف يكون لفظها عام ومعناها عام ، وأن قال بعض المفسرين لفظها عام ومعناها خاص لأنه فهم أن الرحمة وإرادة الله الخير الدينى لمن يشاء فتكون خاصة ، ولما علم إبليس بهذه الآية قال أنا شئ من الأشياء ووسعتني الرحمة فقهره الله ورده بقوله تعالى **"فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ"** ولما سع اليهود هذه الآية قالوا أن هذه الآية خاصة بنا فأنا نتقى ونؤتي الزكاة ، فكذبهم الله وقهرهم بنص الآية التالية.

قوله تعالى : **"الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ"**(157).

بهذه الآية وارتباطها بالآية السابقة رد الله تعالى اليهود فى دعوى خصوصية وسعة الرحمة بأنها لهم وحدهم كما رد إبليس فى دعواه بأنه شئ تشمله الرحمة ، وخص الله بها كل من أتبع رسول الله وخاتم أنبيائهε ، وتأويل الآية "فسأكتبها" أي أقدرها وأخص بها الذين "يتقون" أي يتجنبون الكفر ، وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة ، وتأولها بعضهم بالذين يتقون المعاصي "ويؤتون الزكاة" إتيان الزكاة وأن كان معلوما لغة أنه إخراج زكاة الأموال والحرث والماشية إلا أن قوله تعالى "وهم راكعون" تسع زكاة النفس قال تعالى **"وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا"**[1] وهذا قول أبن عباس **"وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ"** تأويل هذه الآية أن الله جعل من صفات من سبقت لهم عنايته بوسعة رحمته لهم أنهم يصدقون بآيات الله تعالى ، ولتلك الآيات ثلاث معان.

المعني الأول : - هو تصديق سيدنا ومولانا محمدε وبما جاءنا به من عند الله تعالى.

المعنى الثاني : - هو النظر إلى ما في تلك الكائنات من آيات الله المنبجلة للعقول السليمة من الحظ والهوى.

المعني الثالث : - النظر إلى الآيات التى فى أنفسنا وتلك التى فى النفوس الإنسانية لا تنبلج إلا لخاصة أولياء الله تعالى قالε "من عرف نفسه عرف ربه" ، "والذين يتبعون الرسل النبي الأمي" أي الذين يؤمنون برسالته ويعملون بسنته بعد العلم ، وهم العلماء العاملون ، فإن الأتباع فى الحقيقة هو الاقتداء بأكمل معانيه و "الرسول" هو من أرسله الله تعالى لأمة من الأمم ليبين لهم سبيل الله تعالى ويدلهم على مناهج الخير الموصلة إليه سبحانه "النبي" أي العلي المقام عند الله تعالى "والأمي" أي من أمة العرب الذين لا يقرؤن ولا يكتبون وكونه "ص" أميا من أكمل المعجزات لأنه "ص" نشأ بين جاهلية عمياء صماء وظهر بينهم شمسا مشرقة بأنوار العرفان وغرائب العلوم وكمال الأسرار ، وآيات القرآن المجيد خير شاهد على صدق دعوته ، فهو المعجزة الكبرى الدائمة فى أمته إلى ما شاء الله تعالى.

"الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ" وهذه الآية أقوى حجة فى تحدي اليهود والنصارى ولو لم يكن الأمر كذلك لطاروا به بين الناس لشدة عداوتهم لرسول اللهε ، ومعني هذه

([1]) سورة الشمس آية : 7 – 8 –9.

الآية الشريفة أن الله أنزل صفات خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام فى التوراة والإنجيل ، أما فى التوراة فقد وصفه الله فيها بما وصفه به فى القرآن المجيد فى قوله تعالى **"يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ"** هذه الآية الشريفة هى التى وردت فى التوراة بمعناها وهى خبر الله تعالى عما وصف به حبيبهε فى التوراة والإنجيل ومعنى "يأمرهم بالمعروف" أي يأمرهم بتعظيم الله تعالى وإطاعة أمره وبالرحمة على الخلق ، وكل من أمر بتعظيم الله تعالى بعد بيان أسمائه وصفاته العلية ،وبطاعة أمره جل جلاله بعد علم الواجب عليه والمرغب فيه وعلم الحلال والمحبوب والحرام والمكروه ، يكون آمرا بالمعروف بعد أن يأمر نفسه فتطيعه يقوم فيدعو غيره بما دعا به نفسه حتى يكون كلامه مؤثرا منوعا للأفكار.

"وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ" أي عن الشرك بالله والتكذيب بآياته ، ولأجل أن يكون ناهيا عن المنكر يجب أن يكون عالما بما أنكره الشرع عالما بأساليب الإنكار حتى لا ينكر على معروف ولا يوقع من ينكر عليهم شرا مما هم فيه ، وأن من أنكر منكرا بأسلوب غير حكيم نفر من ينهاهم فأوقعهم فى أكثر مما هو فيه ، فقد يأتي الناهي عن النكر فينهي الرجل عن المنكر بفظاظة وسوء أخلاق فيوقعه فى الكفر ، وأدب القرآن فى هذا الصدد أولي بأن يقتدي به الذين يتصدون للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قال تعالى **"ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ"**[1] وقال تعالى **"وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"**[2] ، وأرسل الله موسى وهارون إلى فرعون ووصاهما بقوله تعالى **"فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى"**[3] ومن علم أن الغيب مستور وأن السابقة مجهولة لا يحكم على مرتكب المعاصي من أهل التوحيد باليأس من رحمة الله تعالى ، فقد يغفر الله تعالى لمرتكب الكبائر ويقيمه مقام الصديقين من عبادة ويسلب إيمان من يزعم أنه تقى ، وكان ستون ألفا من الصحابة يبكون الليل خوفا من سلب الإيمان ، لأنه لا يأمن جانب الله تعالى إلا القوم الغافلين ، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرين، فالواجب على أهل الإسلام أن يشتد خوفهم فى أرقى مقامات الطاعات ، وأن تقوى ثقتهم بالله وطمعهم فى رحمته الواسعة بعد ارتكابهم المعاصي ، ليفروا إلى الله بالطمع فى رحمته والرجاء فى عفوه قال تعالى **"وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ"**[4].

"وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ" ، والطيبات التى يعنيها الله سبحانه فى هذه الآية هى الطيبات التى حرمها أهل الجاهلية على أنفسهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وما حرمه الله على بني إسرائيل تشديدا علهم وفتنة لهم في قوله تعالى **"وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ"**[5] وكان هذا التحريم من الله عليهم جزاء منه سبحانه وتعالى على بغيهم فأحل الله تعالى لحبيبه محمدε ما حرمه أهل الجاهلية علي أنفسهم كما تقدم ، وما حرمه الله على اليهود جزاء بغيهم ، وأن فهم بعض المفسرين أنه أحل الطيبات التى يستطعمها الإنسان ، فإن الطيبات خلقها الله تعالى لنا حلالا إذا

([1]) سورة النحل آية : 125.
(2) سورة فصلت آية : 33 – 34.
(3) سورة طه آية : 44.
([4]) سورة آل عمران آية : 135.
(5) سورة الأنعام آية : 146.

تناولناها من وجهها الشرعي ، وإحلال الله تعالى ما حرمه أهل الجاهلية على أنفسهم ،وما حرمه الله علي اليهود ، أحله الله لنا رحمة من الله بنا وبالقوم رحمهم بها من رحمة حبيبه محمدε التى أخبرنا الله بها بقوله "وما أرسلنك إلى رحمة للعالمين" فهو صلى الله عليه وسلم رحمة الله للعالم أجمع فى الدنيا ،وتكون الرحمة أعم وأشمل إذا ظهر الحق الذى جاء به صلى الله عليه وسلم على الباطل لأن الإسلام يأمر بالحرمة والعطف والشفقة حتى بالحيوانات ، فإذا ظهر أهل الحق على أهل الباطل عمت رحمة الله العالم جميعا لا فرق بين المؤمن والكافر فيعم الإسلام بين العالم وينمحي الظلم والتظالم بقوة سلطان الإسلام ولولا ذلك لما رأيت على وجه الأرض من يدين بغير الإسلام مثل ما ترى شراذم من اليهود والنصارى بين عشرات الملايين من المسلمين فى أمن وأمان وعافية ويسار يعاملهم المسلمون معاملتهم لأنفسهم ، وكم أحدث اليهود والنصارى أحداثا توغر الصدور وتغضب الحليم خصوصا فى زمان الحروب الصليبية وفى أيام طغيان دول الاستعمار على الشرق ، كدولة أسبانيا الظالمة الطاغية التى قتلت وأحرقت وأغرقت أكثر من ثمانية ملايين مسلم بالأندلس ، وكفرنسا التى دمرت وأهلكت جموعا كثيرة بمراكش والجزائر وتونس ومصر أيام نابليون ، وكالإنجليز الذين فرقوا كلمة المسلمين وأوقعوهم فى الشحناء والبغضاء ، حتى تمكنوا من مصر والسودان فأفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ،وفى فلسطين حتى مكنوا اليهود من المسلمين هناك ليوقعوا بينهم الحروب الدامية ويهلكوهم ببعضهم كما فعلوا بأمريكا والهند وسواحل أفريقيا عملا منهم بسياسة فرق تسد ، وكما فعلت إيطاليا بطرابلس الغرب وبأرتريا وغيرها ، وكما فعلت روسيا بسيبريا وما حولها من الأمم الإسلامية ، وجهل دول الاستعمار والاستعباد قهر القهار القوى ، وانتقام الحكم العدل من أهل الظلم والطغيان ، قال تعالى **"حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ"**[1].

وهنا أذكر أخوتي المسلمين بما أراه واجبا على والذكري تنفع المؤمنين ـ أخوتي جدد الله بنا مجد سلفنا الصلح ، أنكم تعلمون ما كنا عليه قبل الإسلام ، كنا يا أخوتي فى جاهلية عمياء صماء نؤكل ولا نأكل فى شظف العيش وضيقه أشبه بالوحوش فى غاباتها ، ولما أن هدانا الله للإسلام بمحمدε مكن الله لنا فى الأرض ، حتى ملكنا جنوب أوربا وشرقها ، وأذل الله لنا شمالها وغربها حتى كانوا تحت يدينا كالرقيق ، ومكن لنا ربنا فى آسيا شمالها وجنوبها وشرقها وغربها فلم يبق فيها أرض إلا وراية الإسلام تخفق عليها، ومكن الله فى أفريقيا حتى أبخرت أساطيلنا الحربية فى البحر الأبيض والأحمر والدردنيل من زمان معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه ، وحاصر جنود الإسلام القسطنطينية انتصارا للحق ، ثم فتحت مدن جنوب إيطاليا وكذلك فرنسا وفتحت أسبانيا ن وقد أخبرنا التاريخ أن سلفنا الصالح فتح بلاد العالم أجمع بسلطانه . كل تلك المظاهر لم تكن لنا بكثرة عدد ولا بقوة عدد وكان عددنا العمل بكتاب الله وسنن نبيه ، وعددنا تعظيم أوامر الله والرحمة بجميع الناس كل على قدر ما أوجبه القرآن المجيد ، وكان المسلمون جميعا كالجسد الواحد إذا مرض منه عضو تداعي له بقية الجسد بالسهر والحمي ، بل كان المسلمون متكافئين يسعى بذمتهم أدناهم على أعلاهم فتفضل الله علينا بأن صرفنا فى ملكه وملكوته ووهب لنا كلمة كن ، وكان أقرب إلينا من أنفسنا يعطينا ما نحبه قبل سؤالنا له ، حتى تغيرت قلوبنا بحب الحظ والهوى والشهرة فتفرقنا أيدي سبأ وسلط الله علينا من لا يرحمنا وقد قال الله تعالى **"إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ "**[2] فهلم بنا يا أخوتي

([1]) سورة يونس آية : 24.

([2]) سورة الرعد آية : 11.

نتذكر سلفنا ونجاهد أنفسنا حتى نعود إلى ما كانوا عليه رضى الله عنهم إخلاصا لله وإعلاء لكلمته وإحياء لسنة من بعثه الله رحمة للعالمين عسى الله تعالى أن يمكن لنا كما مكن لسلفنا ، وأن يتفضل علينا برضوانه الأكبر يوم لقائه أنه قريب مجيب.

"وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ" هذه الصفة من صفات رسول الله التى وصفه الله بها فى التوراة والإنجيل والقرآن "والخبائث" التى يحرمها عليهم هى ما كانوا يستحلونه من لحم الخنزير والميتة والدم وغيرها من الربا والميسر ومن النهب والسلب والاغتصاب مما كانوا يحلونه فى الجاهلية ، ومعنى هذه الآية أن الله تعالى يحرم عليهم ما كانوا يحلونه من الخبائث **"وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ"** "الأصر" هو الحمل الثقيل وهى العهود التى أخذوها على أنفسهم ، فأنهم كانوا إذا تنجس الواحد منهم بالبول يقطع جسمه بالمقراض ، وإذا تنجس ثوبه احرق محل النجاسة بالنار حتى يطهر ، وكانت تحرم عليهم الغنائم وأمثال هذا **"وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ"** وهى الأحكام التى حكم الله بها عليهم تشديدا وامتحانا لهم.

"فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ" أي الذين صدقوهε "وعزروه" أي وقروه وعظموه "ونصروه" أي أيدوه بالنفس والنفائس على أعدائه حتى يكون الدين كله لله **"وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ"** أي اتبعوا أحكام القرآن الذى أنزله الله تعالى مع بعثتهε ليبلغه عباد الله تعالى ، ووصف القرآن بالنور لأنه يبين طريق الله تعالى كما تبين الشمس طرق الأرض وشتان بن نور يبين طريق الله وسبيله ونور يبين طرق الأرض ودروبها ، فالنور الذى مع رسول اللهε يصل بمن يتبعه إلى الله تعالى حيث مقر رضوانه الأكبر "أولئك" الإشارة هنا راجعة إلى الواو التى هي كناية عن الفاعلين فى "الذين يتبعون" "هم المفلحون" الذين خصهم الله تعالى بالفلاح والفوز بالرضوان فى الدنيا والآخرة.

قوله تعالى : **"قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ"**(158).

هذه الآية الشريفة أمر من الله تعالى إلى رسولهε أن يخبر الناس بما تفضل الله به عليه وعليهم من الخصوصية العالية ومن المزية التى أقامه فيها سيدا للعالمين بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وجمله باسمين من أسمائه الحسنى فى قوله **"حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ"**[1] ، وسبب نزولها أن الله تعالى لما أنزل قوله سبحانه **"وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ"**[2] شملت إبليس بحكم أنه شئ ، فأخرجه منها بقوله **" فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ"**[3] فطمع فيها اليهود والنصارى وقالوا نحن الذين نتقي ونؤتي الزكاة فأخرجهم الله بقوله **"الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ"**[4] فصارت تلك الرحمة الواسعة خاصة بأمه خاتم النبيين ، ولما كانت تلك الرحمة الإلهية الواسعة لمن تبع محمدε جعله الله تعالى رسولا إلى الناس جميعا رحمة بالخلق أجمعين والله أرحم الراحمين **"إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا"** أي أني مرسل من قبل الله تعالى للناس أجمعين بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، ولم يأمره الله تعالى بهذا إلا بعد أن

([1]) سورة التوبة آية : 128.
(2) سورة الأعراف آية : 156.
(3) سورة الأعراف آية : 156.
(4) سورة الأعراف آية : 157.

قامت الحجة بالمعجزات الباهرات ووضحت الحجة بما جمله الله تعالى به من أخلاقه الربانية وما أدبه لذاتهε ظاهرا وباطنا.

"الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ" تأويل هذه الآية أن الله تعالى يخبرنا عن انفراده جل جلاله بملك السموات والأرض ملك من أوجدهما وقهرهما وجملهما بكل ما هو ضروري وكمالي للإنسان ، وقد أكرم الله بني الإنسان بما هو خير لهم من السموات والأرض ببعثة محمدε إليهم رسولا عاما ليفوزوا برحمته الواسعة إذا هم أتبعوه بصدق "لا إله إلا هو يحيى ويميت" أي هو الغني عما سواه المفتقر إليه كل من عداه الذى يألله إليه العالم تنسكا وحيرة ، وهذه الآية الشريفة هى حكمة بعثة محمدε إلي الناس جميعا ، وقد نفت الآية الشريفة الألوهة عمن سوى الله وما سواه فحصرت الألوهة فى هويته جل جلاله "أي فى ذاته" لأن الآية أفادت الحصر أي القصر ، فقوله تعالى "إلا هو" فهو هنا ليست ضميرا ، ولكنها اسم من أسمائه تعالى وأنها كناية عن الهوية المتصرفة كما قال تعالى "هل هو الله أحد" فإن قوله سبحانه "هو" أي الذات ، ولما لم يكن ثم تعريف يعرف الذات بالحد أو الرسم أجاب المهتمين بمعرفة ذاته جل جلاله بقوله "الله أحد الله الصمد" وهذا ليس جوابا لما "هو" أو من "هو" لأن نزاهة ذاته العلية فوق أن تحد أو ترسم ،وما علينا إلا أن نؤمن بأن ذاته جل جلاله فوق أن تعرف بالإشارة أو بالعبارة ، فمن أشار إليها بإشارة فقد حيز ، ومن حيز عد ، ومن عد فقد كفر كما قال على عليه السلام ، "من وصفه فقد حده ومن حده فقد عده ومن عده فقد أشرك به" "يحيى ويميت" أي أنه سبحانه وتعالى يحدث الحياة ويخلقها فى كل نوع قابل لها ن فالجمادات حية وحياتها قوة التماسك فيها وموتها بتحليل أجزائها ، والنباتات حية وهى تأكل وتشرب وتعيش وتموت ، والحيوانات حية وحياتها أنها تأكل وتشرب وتحي وتتحرك وموتها فقد ذلك ، والإنسان حي وحياته أنه يأكل ويشرب ويحس ويتحرك ويريد وينطق ويعقل ، وأحداث الحياة الأولي فوق أحداث الحياة الثانية أي أن قيام الناس ليوم الحساب أيس من الحياة الأولي "ويميت" أي يسلب الحياة من الحي حتى يصير ميتا "والموت" هو فقد الحس فى الأنواع الحيوانية وفقدهما مع فقد النطق والإرادة فى الإنسان ، وهذه الآية الشريفة التى قامت بها الحجة على وحدانية الله تعالى ، وعلى أنه سبحانه له ملك السموات والأرض ، وأنه جل جلاله يحي ويميت أثبتت بالحجة الدامغة أنه آله العالم أجمع ، فليس له شريك ولا نظير ولا شبيه ولا نظير ولا صاحبة ولا ولد، وأنه سبحانه قادر حكيم يحب الخير لعباده ولحبه الخير لهم أرسل لهم محمدε رسول من عنده للناس جميعا ، لأن الخلق عبيده أوجدهم جل جلاله ، وأمدهم بقدرته وحكمته وأسعدهم ببعثة خاتم الرسل بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا للناس كافة ، لأنه لا إله غيره ينازعه فى ملكه بل المشيئة والإرادة إرادته ، فقامت الحجة على صدق دعوى رسول اللهε أنه مرسل من عند الله للناس أجمعين.

"فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ" هذه الآية الشريفة حجة قوية على أن الله واحد أحد يجب على جميع خلقه الإيمان بأنه إله واحد فرد صمد قادر حكيم "ورسوله" أي وبرسولهε وذلك بأن نصدقهε فيما جاءنا به من عند الله تعالى بعد الحجة البالغة والمحجة الواضحة "النبي الأمي" تقدم الكلام عليها فى الآية السابقة وهنا أزيدك أن الأمية أكمل معجزاتهε لأنه تربي بين الجاهلية ولم يفارقها كما بينت لك ومع ذلك فقد علمه الله من لدنه علما لم يعلمه لمن قبلهε من آدم إلى عيسى عليهم السلام بل ولا يعلمه حملة العرش لأن الله علمه علما ذاتيا لذاتهε لم يعلمه الملائكة والرسل وهو من جاهلية عمياء صماء فكانت

الأمية معجزة كبرى ،ولما كان الإيمان بالله أصلا والإيمان بالرسل فرعا قال "فآمنوا بالله ورسوله" ومن لا يؤمن بالله فهو جاحد ، ومن لا يؤمن برسوله محمدε فهو كافر.

"الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ" هذه الآية الشريفة من صفاتهε السابقة الذى تقدم ذكر بعضها فى الآيات السابقة "ويؤمن بالله" أي يصدق تصديقا يليق بمقامه المحمديε ذاتا واسما وصفة وفعلا وظهورا وبطونا "وكلماته" تلك الكلمات التى خلق بها الكائنات ، ومن كلماته عيسى بن مريم وآدم ومعجزات حبيبه محمدε لأن العالم كله من كلمات الله تعالى.

وجائز أن يكون المراد بكلمات الله تعالى هو القرآن المجيد وجميع الكتب المنزلة على الرسل السابقين عليهم الصلاة والسلام.

"وَاتَّبِعُوهُ" هذا خطاب من الله لنا جميعا وهو أمره تعالى لنا للاقتداء بهε فى أعماله وأقواله وأحواله عليه الصلاة والسلام إلا ما خصه الله به من الخصوصيات الباطنة والظاهرة كقيام الليل ، قال تعالى : **"قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا"** وكما يباح له من الغنيمة وغيرها ، وتقدم بيان الاتباع فى الآيات السابقة **"لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ"** أي لتهتدوا بإتباعه هداية تصلون بها إلى كمال القرب من الله تعالى حيث تفوزون بالحسنين.

قوله تعالى : **"وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ"**(159).

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن موسى عليه السلام لما أن كتب الله تعالى فى الألواح صفات خاتم الرسل قال : "يا رب إنك جعلت سادتنا لغيرنا ونتمنى أن تكون هذه الأمة له وأن يكون نبيها" ثم تمنى أن يكون منها ، وحزن موسى وقومه ، قال الله تعالى بقوله **"وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى"** "ومن" هنا للتبعض وقوم موسى أي من بني إسرائيل لأنه أرسل إليهم خاصة و "أمة" جماعة من الناس **"يَهْدُونَ بِالْحَقِّ"** أي يدلون الناس على الله تعالى وعلى إتباع أوامره واجتناب نواهيه بالحق الذى جاء به موسى **"وَبِهِ يَعْدِلُونَ"** أي بالحق الذى جاء موسى عليه السلام يحكمون الناس.

قوله تعالى : **"وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ"**(160).

"وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا" أي فرقناهم أحزابا ليدوم بينهم الصفا "وأسباط" هنا تمييز العدد وتمييز ما بعد العشرة إلى ما لا نهاية يلزم أن يكون مفرد منصوبا ، ومن ثلاثة إلى تسعة يلزم أن يكون جمعا مضافا إلى العدد ، وهنا يراد "بالأسباط" الواحد لأنهم أمة واحدة ونوع واحد وهم أبناء يعقوب التي أخبرنا الله عنهم فى حديث يوسف عليه السلام بقوله : **"إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا"** فأن الأحد عشرة كانوا أخوة يوسف ، فإذا أضفنا إليهم يوسف كانوا اثنتي عشر رجلا وأبناؤهم الأسباط.

وجائز أن يكون أسباط ليس تفسيرا لاثنتي بل هو ترجمة عن التمييز المحذوف وهو **"وقطعناهم اثنتي عشرة فرقة أسباطا"** فتكون فرقة تمييز الاثنتى عشرة ويكون أسباطا ترجمة لها "أمما" أي كل سبط مستقل بنفسه كالأمة.

"وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا" هذه الآية الشريفة مما من الله على بني إسرائيل بها ن فإن القوم أشتد بهما الظمأ وهم فى الصحراء الطور تحت شمس محرقة وحولهم الماس المالح ، فرواهم الله بالماء العذب بمعجزة حيرت العقول بعد اليأس من الحياة لفقد الماء الذى به رغد العيش **"وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى"** أي نبأه بالوحي **"أَنِ اضْرِبْ"** هنا بمعنى أن التفسيرية ،والمعنى أن اضرب ، والعصا معلومة "وال" فى الحجر ، أما أن

تكون للجنس ويكون المراد لموسى عليه السلام **"فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا"** "الانبجاس" هو الانفجار ، ولكن الفرق بينهما أن الانفجار يكون فى الماء فيه غائرا والانبجاس يكون الماس فيه مرتفعا حتى يتنوله الإنسان بيده وهي من أكمل منن الله عليهم ، ومعنى **"اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا"** لأن الله جعل لكل سبط عينا يردها حتى لا تحصل منازعة ولا منافسة وهى من أفضل منن الله تعالى عليهم ، **"قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ"** أي قد تعين مشرب كل سبط من الأسباط.

"وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ" هذه الآية الشريفة منة من الله تعالى على بني إسرائيل لأنه جل جلاله رحمة بهم جعل الغمام يقيهم حر الشمس فيكون فى الصيف ملطفا للهواء وفى الشتاء مانعا عنهم برد الهواء **"وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى"** المن هو "الترنجبين" وهو عسل رطب يسقط على أوراق الأشجار وله عم شهى بين الحلاوة والحرافة ، سهل الهضم عظيم الغذاء "والسلوى" هو الطير المعروف بالسمان حتى ورد أنهم إذا قبضوه بأيديهم وجدوه مشويا سهل التناول لذيذ الطعم والرائحة ، وذلك الرزق يقتضي كمال الشكر وشهود مشاهد التوحيد العلية لأن الله رزقهم من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون ، ومن كان هذا كرمه وفضله ومننه تعين على عبيده أن يديموا شكره وذكره وأن يخلصوا فى عبادته.

"كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ" هذا أمر من الله تعالى للإباحة ، أي من طيبات ما رزقناكم فى هجرتكم هذه مما يناسب المكان والزمان وهذا الرزق الذى رزقناكموه فضلا وكرما من غير عناء منكم ولا جهد ولا سبب قائم يقتضيه.

"وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ" هذه الآية الشريفة تشنيع عليهم من الله تعالى لأنهم أبوا أن يطيعوا أمر الله تعالى ، فطلبوا من موسى أن يسأل الله سبحانه وتعالى أن يخرج لهم "مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها" فأخبرنا الله عنهم أنهم لم يظلموه بطلبهم هذا وليقضي لهم ما سألوه أو ما يستحقونه لأنه قادر على كل شئ ولكنهم ظلموا أنفسهم بعدم قبولهم رزق الله تعالى وبكونهم ملوا المن والسلوى فظلموا أنفسهم بالعناء والتعب لتحصيل ما طلبوه ، وهذه الآية تقدم الكلام عليها فى السورة التي تذكر فيها البقرة.

قوله تعالى : **"وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ"**(161).

تأويل هذه الآية أن الله تعالى يقول لحبيبه محمدε وأذكر إذ قلنا لبني إسرائيل "أسكنوا" أي أقيموا فى "هذه القرية" إقامة سكنى **"وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ"** وهذه الآية تقدمت فى سورة البقرة ولكن الفرق بينهما أن الآية فى البقرة "أدخلوا فكلوا" وفى هذه الآية "أسكنوا وكلوا".

والحكمة فى ذلك أن الداخل أولا يكون محتاجا إلى الأكل فأتي بالفاء لتزيين الأكل عقب الدخول لاحتياج الداخل إلى الأكل ،ولما كان الساكن غير محتاج إلى الأكل قال "اسكنوا" أي قيموا "وكلوا" في أي زمان شئتم فلا يلزم الترتيب "حيث شئتم" الحيثية هنا صادقة على كل نوع من الحيثيات زمنية أو مكانية عدسا أو بصلا أو خبزا أو ثمارا أو فاكهة أو سمكا و لحما ، وفى قوله "منها" أي من القرية وفى البقرة "رغدا" وليس هنا ،قال فى البقرة "رغدا" لأن الداخل يجب أن يبشر قبل دخوله بما هناك ،والساكن عالم بكل ما عنده **"وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا"** وفى آية البقرة "وأدخلوا الباب سجدا وقولوا حطة" فقدم هنا القول وآخر الدخول ، وفى البقرة آخر القول وقدم الدخول ، والتأخير والتقديم لحكمة ـ أما هنا فأنهم أمروا بالقول قبل الدخول ليعترفوا بخطيئتهم الكبرى ، ويدخلون متلبسين بالاعتراف قلبا وقالبا ، والمراد فى البقرة كما تقدم أن يدخلوا معترفين ،ولكنهم غيروا أمر الله تعالى

وقالوا حبة شعير فى حنطة ، وقولوا "حطة" أي خطيئة ، أي حط عنا تلك الخطيئة ، أي أدفع عنا حسابها **"نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ"** أي نستر عليكم كبائركم التي ارتكبتموها لمخالفة أمرنا ومعصيتكم كليمنا عليه السلام ، وكان سائلا يسأل الله تعالى فيقول "وماذا بعد المغفرة والستر على ذنوبنا لأن مجرد المغفرة هو أن يستر الله على العبد ذنوبه حتى ينساها وينساها الحفظة والناس أجمعون ، ولكن هل يسعد الإنسان المغفرة فلا يكون له ولا عليه فقال الله تعالى **"سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ"** أي سنهب مزيد خيرنا من النعيم المقيم يوم القيامة، ومن الهداية والتوفيق والغني والعافية فى الدنيا للمحسنين الذين أطاعوا أمرنا وسارعوا إلى محابنا ومراضينا "والإحسان" مقام على بينه رسول اللهε فى الحديث الطويل بسند البخارى وغيره حين ما يسأله جبريل "ما الإحسان" قال "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

قوله تعالى : **"فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ"**(162).

أي فبدل الذين ظلموا أنفسهم بمخالفة الأمر قولا غير الذى قيل لهم ، فإن الذى قيل لهم "قولوا حطة وأدخلوا الباب سجدا" فجلسوا على ألسنتهم سحقا وقولوا حبة شعير فى حنطة ، **"فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ"** وفي آية البقرة "فأنزلنا عليهم" والفرق بينهما أن الإرسال كثير جدا والإنزال قليل ، فإنهم لما غيروا أنزل عليهم رجزا قليلا فلما أداموا التغيير أرسل عليهم رجزا كثيرا "والرجز" العذاب والبلايا والمصائب **"بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ"** أي بظلمهم أنفسهم ، وظلمهم أنفسهم هو مخالفة أمر الله تعالى فإنهم استحقوا الانتقام من الله والانتقام أشد من العذاب ، والله على عظيم عن أن يظلم أحد وإنما الظلم وقع على أنفسهم من أنفسهم.

قوله تعالى : **"وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ"**(163).

هذه الآية الشريفة تشنيع من الله تعالى على معاصري رسول اللهε من اليهود الذين لم يقبلوا الإسلام لأن الله سبحانه وتعالى يأمر حبيبه محمدε أن يسألهم سؤال إنكار عليهم لأنهم خالفوا الله ورسوله ، كما خالف أسلافهم ممن كانوا مع داود عليه السلام ، وتأويل هذه الآية الشريفة . أن الله تعالى يقول لحبيبه محمد عليه الصلاة والسلام وأسأل معاصريك من اليهود الذين أخبرتك عنهم بما لا يعلمه إلا أحبارهم الراسخون فى علم تاريخهم لتقوم لك الحجة عليهم "بتعليمي إياك أخبارهم من غير معلم يعلمك من بنى الإنسان" لنشأتك بين قوم أميون يجهلون أخبار السابقين.

"وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ" "والقرية" هي "أيلة" على ساحل البحر "وحاضرة البحر" أي قريبة من البحر **"إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ"** أي واذكر إتيانهم الحيتان سمانا يوم السبت "شرعا" أي مرتفعة من سمنتها ، وكان يوم السبت محرما عندهم حرم الله تعالى العمل عليهم من صيد وتجارة وزراعة وصناعة فكانوا يحرمون الصيد يوم سبتهم أي يوم تعظيمهم ، وسبت الرجل وأسبت أي ترك العمل يوم السبت تعظيما لأمر الله تعالى **"وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ"** هذا ابتلاء من الله واختبار لهم ليظهر تعظيمهم لأمر الله تعالى أو تهاونهم به **"كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ"** ، أي كما بلونا من قبلهم من بنى إسرائيل وكذلك نبلو هؤلاء بأن نجعل الحيتان تأتيهم يوم سبتهم شرعا كثيرة وفى غير يوم السبت يطلبونها بكل وسيلة فلا يجدونها ابتلاء منا واختبارا لهم **"بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ"** أي يخرجون من حصون الشريعة لمخافتهم لأمر الله تعالى ، وقد أنقسم أهل هذه القرية إلي ثلاثة أقسام ، قسم منهم خالف الأمر وأتاهم الشيطان فقال لهم أن الله تعالى حرم عليكم

الصيد ولم يحرم عليكم الأكل فاجعلوا جار البحر حرفة يوم الجمعة وأوصلوها بالبحر يتساقط فيها السمك يوم السبت وتأكلوه يوم الأحد يكون حلالا لكم ، ففعلوا واستحلوا أكل السمك يوم الأحد الذي ينتقل من البحر إلى الحفرة فى يوم السبت ، ثم من بعد زمن قليل قالوا رفع عنا حكم السب واصطادوا يوم السبت من البحر ، فنهاهم الفريق الثاني عن مخالفة حكم الله تعالى بحكمة ثم بشدة فلما أبوا إلا المعصية قسموا القرية بينهم أقسام لكل فريق منهم قسم.

قوله تعالى : **"وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ"**(164).

تأويل هذه الآية الشريفة أن الفريق الثالث الذين هم من أهل الإيمان قالوا لإخوانهم الذين أتبعوا أنفسهم فى نهى العصاة عن ارتكاب المعاصي **"لِمَ تَعِظُونَ"** أي تنصحون قوما ارتكبوا محارم الله تعالى حتى وقعوا فيما يغضبه ، وهم الذين استحلوا الصيد يوم السبت ، دعوهم فإنهم بعد هذا يقع عليهم عذاب الله تعالى فيهلكهم أو يعذبهم فى الدنيا والآخرة.

"مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ" هذا خبر من الله تعالى عن قول القوم الذين نهوا أهل المعاصي ووعظوهم فلم يقبلوا لإخوانهم الذين عتبوا عليهم فقالوا لهم أنا نهيناهم عن المنكر ونعتذر بذلك معذرة إلى ربنا قياما بالواجب علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولحكمة أخرى هي أنا نرجو أنهم يتقون مخالفة الله تعالى.

قوله تعالى : **"فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ"**(165).

أي فلما نسيت الفرقة الطاغية وهم الذين اصطادوا يوم سبتهم ووعظهم أهل الإيمان بالله بالحكمة والحجة فأبوا أن يقبلوا النصيحة ونسوا عهد الله وميثاقه **"أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ"** وهم الذين حفظوا على أوامر الله تعالى ممن وعظوا مرتكبي الكبائر وممن عيب عليهم من الفريق الثاني فقوله **"أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ"** شملت النجاة من لم ينهوا ولكنهم حافظوا على العمل بأوامر الله تعالى ، وأن كانوا لاموا على أخوانهم الذين نهوا أهل الضلال لأنهم تحققوا وقوع العذاب لهم لإفراطهم فى المعصية بوقوعهم فى الكبائر ، وهذه الآية الشريفة أخوف آية فى كتاب الله تعالى ، لأن بعض العلماء أخذ بظاهر اللفظ فقال أن الذين نجوا هم الناهون عن المنكر ، وأما الذين تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنهم هلكوا مع الهالكين وذلك مما تذوب له قلوب السالكين ، لأنا نجد المنكر علنا كالربا والزنا وشرب الخمر والتفرقة والعقوق والقطيعة بل وما فوق ذلك من التفريط فى القيام بالواجبات الشرعية فلا نأمر بالمعروف ولا ننهى عن المنكر وربما دارينا القوم وجاريناهم ، اللهم أني جبان فشجعني ، وكسلان فنشطني وبخيل فسخني يا رب العالمين ،واحفظني من الفتن والاختبار والامتحان.

"وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ" أي انتقمنا من الذين ظلموا أنفسهم بصيد الحيتان من البحر يوم السبت "بعذاب بئيس" "الباء" هنا للالصاق ، "وبئيس" أي شديد البؤس والألم "بما كانوا يفسقون" أي بما كانوا يخرجون من حصون الشريعة المطهرة فيخالفون أوامر الله تعالى.

قوله تعالى : **"فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ"**(166).

أي فلما أصروا على ما نهوا عنه وأبوا أن يقبلوا النهي **"قُلْنَا لَهُمْ"** أي قلنا كلمة كن بلفظها ومعناها **"كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ"** فمسخهم الله بالكلمة قردة وخنازير ، فكان شبابهم قردة ، وشيوخهم خنازير "خاسئين" أي صاغيرين ازلاء مقهورين ، وقد تأول بعض من يجهل نفسه أن المراد بنسخهم قردة وخنازير هو سلب القوة العاقلة منهم حتى صارت همم وإرادات القردة والخنازير ، وهؤلاء القائلون

بذلك جهلوا عجائب قدرة الله تعالى ، فإن قوله الله تعالى **"كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ"** مع قدرته سبحانه وتعالى على أن يبين الحقائق فأفصح عبادة وأرق إشارة دليل على مسخ الحقيقة الإنسانية.

قوله تعالى : **"وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ"**(167).

قوله تعالى : **"وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ"**(167).

تأويل هذه الآية الشريفة أن "تأذن" أي إذن والأذان هو الإعلام ، ويتضمن معني القسم ،والمعني أعلم يا محمد أن ربك قادر علي كل شئ ، وقوله تعالى **"لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ"** "اللام" هنا القسم "ويبعثن" جواب لقسم مؤكد ، أي ليسلطن **"عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ"** بالذل والمهانة أي يوقعهم فى القهر فيقرقهم أيدي سبأ ويخذلهم بالجزية ، وقد فسر بعض العلماء "من" هنا بمن سلطه الله تعالى على الذين اختلفوا فى السبت ، وهذا مردود لأن هؤلاء الظالمين أنمسخوا قدرة وخنازير ، وقال البعض الأخر أن المقصود هو بختنصر ، ولكن بختنصر لن يعيش إلى يوم القيامة ، وقال آخرين هم ملوك الروم ومن فى حكمهم ، ولكني أري من ظاهر الآية أن الذى يظهره الله ويبعثه عليهم إلى يوم القيامة هو رسوله محمدε ممثلا فى دين الإسلام وإتباعه العاملين بسنة رسول اللهε . وقد ورد في صحيح الإمام أبي الحسين البغوي فى كتابه "مصابيح فى باب الملاحم والفتن" أن اليهود يستقرون في آخر الزمان ف فلسطين ويكونوا أنصارا للمسيخ الدجال ، وأن الله سبحانه يقيم الختم المنتظر ويقوم معه أنصاره الله المسلمون فيقتلون اليهود شر قتلة بفلسطين حتى أن الشجرة والصخرة تقول يا مسلم هذا عدو الله اليهودي مختف ورائي فاقتله ، وقد ظهرت تلك العلامات بما قام به اليهود من غزو في فلسطين ن حيث أيدهم على ذلك أمة الإنجليز ، وقد فتحت أبواب الفتن هناك ويوشك أن يكون الأمر قد أقترب وتظهر معجزة كبرى لرسول اللهε بتحقيق الحديث الذي ورد فى صحيح الإمام البغوى.

وهذه الآية الشريفة حجة قائمة على أن اليهود قاتلهم الله قد سلط عليهم من يسومهم العذاب إلى يوم القيامة ، فلا ينجوا منهم من هذا العذاب إلا من أسلم **"إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ"** أكد الجملة بأن تقوية للخبر "وباللام" بيانا للحقيقة لتنزعج القلوب من الوقوع في المعاصي وسرعة عقابه سبحانه وتعالى ، وقد لا يحس بها أهل الجهالة ، لأنه من سريع عقوبته صرف الإنسان أنفاسه فى معصية الله تعالى وحرمانه من صرفها فى طاعته سبحانه ، فإن معصية الإنسان لله تعالى عقوبتها سريعة جدا وعلامتها أن ينقطع بها الإنسان عن عمل الباقيات الصالحات ويحرم بها من مشاهد التوحيد العلية ومن الأنس بربه سبحانه ، وأي عقوبة فى الدنيا أشد من تلك العقوبة فضلا عما يصاب به الإنسان من العقوبات الأخرى في الدنيا قبل الآخرة **"وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ"** أكد الجملة أيضا بحرف التوكيد وبلامة ليشرح صدور عباد المؤمنين فيسارعون إلى التوبة بإخلاص رغبة في الفوز بالمغفرة "والغفور" هو الذي يستر الذنوب عن خلقه "والرحيم" هو الذى يبدلها بحسنات يوم القيامة.

قوله تعالى : **"وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"**(168).

"وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا" أي فرقناهم جماعات مشتتين في بلدان شتى ، وهذا خبر من الله تعالى عن تقطيع اليهود إلي أمم ولا يزالون متقطعين ، ولو نظرنا الآن فى كل بلد من بلدان العالم لوجدنا فيها يهودا يمتصون دماء العالم بختلهم وكيدهم ، فهم ألين ملمسا من الحيات وأنفث سما منها ، وقد بينت لك فى قوله تعالى **"لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ"** أنهم قاتلهم الله

جنود المسيخ الدجال فى آخر الزمان، وأنهم يحصل منهم غزو فلسطين حتى يظهر الله المسلمين الذين يقودهم الختم المنتظر ، وأوردت لك ما ورد فى الحديث الصحيح عن الفتن والملاحم وأن الشجرة والصخرة تقول للمسلم يا مسلم خلفي يهودي مختف فاقتله ، وعندما تظهر معجزة الله تعالى : "لنظهره على الدين كله".

قوله تعالى "**مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ**" أي منهم من كانوا يتمسكون بدين موسى عليه السلام إلى ظهور عيسى فنسخ شريعة موسى ن "ومنهم دون ذلك" أي منهم من خالفوا التوراة قولا وعملا وحالا وعقيدة ، أو خالفوا عملا وعبادة وأخلاقا ومعاملة "**وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**" أي ابتلاهم بالحسنات وهى العافية وبسطة الرزق مع الأمن "والسيئات" أي الشدائد والكروب من الفقر والأمراض وتسليط الأعداء "لعلهم يرجعون" أي ليرجعوا إلى الله فى أوقات الرخاء والنعمة بالشكر والرغبة فيما عند الله تعالى ، وفى "السيئات" بالتضرع والابتهال والصبر "والرجوع" هنا بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى:

قوله تعالى : "**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**"(169).

"**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ**" تأويل هذه الآية الشريفة أن الكبار من بني إسرائيل بعد موتهم "خلف من بعدهم خلف" بسكون اللام "والخلف" بسكون اللام هم الأشرار من الناس بخلاف "الخلف" بفتح اللام فأنه يخبر به عن اهل الخير وختم سبحانه هذا الخلف بسكون اللام وأنهم قوم أنتقل إليهم الكتاب بعد موت آبائهم "والكتاب" هو التوراة.

"**يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى**" "والعرض" بسكون الراء هو حطام الدنيا "والعرض" بفتح الراء هو المال ماعدا النقدية "وعرض" بالفتح هذا الأدنى هى الرشوة فى الأحكام لأن الرشوة شر الأموال "**وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا**" ومعني هذه الآية أن قضاة بني إسرائيل كانوا يأخذون الرشوة فى الأحكام ، فكان إخوانهم يلومون عليهم ويحذرونهم عاقبة الأمر ، فيقولون "سيغفر لنا" ويتمنون علي الله الأماني غرورا بعد أن بين الله تعالى في كتبه ما يحبه ويرضاه من الأعمال قال رسول اللهε "الكيس من دان نفسه قبل الموت ، والأحمق من أطلق لها هواها وتمني على الله الأماني".

"**وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ**" . أي وأن يأت لمن كانوا يلومون القضاة على أخذ الرشوة ، عد جلوسهم مكانهم فى مجلس القضاة أخذوا الرشوة التى كانوا يلومون السابقين عليها.

"**أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ**" الاستفهام إنكاري علي بني إسرائيل الذين خالفوا عهد الله وميثاقه المأخوذ عليهم لأن كل فريق منهم خالف الله فى نوع من الأعمال ، فمنهم من صاد السمك فى يوم السبت فاعتدي فيه ، ومنهم من أخذ الرشا على الأحكام وهو قاض ، والآية نزلت فيهم ومعناها ألم يأخذ الله تعالى عليهم الميثاق على العمل بالتوراة والمسارعة إلى تنفيذ أحكامها فيما أمر به الله وترك ما نهى عنه سبحانه "**أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ**" ي لا يقولوا فى الفتاوي والأحكام والأخبار علي الله إلا الحق الذى أمر به وبينه لهم بيانا لا يشوبه لبس لأنهم عرفوه "ورسوا ما فيه" . "الواو" هنا للعطف "ودرسوا" معطوف على "ورثوا الكتاب" ومعنى "درسوا" أي تعلموه بإمعان حتى صار معالم أمام أنفسهم ، وبعد أن ورثوا الكتاب ودرسوا ما فيه يأخذون الرشاوى على الأحكام ايثارا للدنيا على الآخرة ، ويرتكبون الكبائر مع العلم "**وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا**" وهذا دليل على

عبادة الهوى من دون الله وعلى عدم التوفيق للتوبة لأن الله تعالى يقول "**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ**"[1].

أما من يعملون السوء بعلم ويبلغ بهم هذا العلم أن يبينوه للناس ، فإن وقوعهم فى الخطايا دليل على أن نفوسهم عنادية للحق ، وكان الواجب عليهم سد أبواب الزرائع عن أنفسهم بالخشوع لربهم وطاعته ، وإدامة الذكر والرياضة فى عبادته.

"**وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ**" "والدار الآخرة" هي الدار المتأخرة عن الدنيا لأن الدنيا أولي والآخرة أخري ، ومن نسى الدار الآخرة نسي يوم القيامة ، ومن نسى يوم القيامة حرم من فضل الله ومغفرته ، وتذكر يوم القيامة أول مقامات المراقبة ، ومن فقد مراقبة يوم القيامة فقد مراقبة الله في كل شئ، وأهل الخشية من الله تعالى فى أرقي مقامات المراقبة لأنهم لا يعبدون الله رغبة فى الجنة ولا خوفا من النار وإنما ليقينهم من أنه سبحانه الأحق بالعبادة . قال أمير المؤمنين عمر في حديثه الموقوف عليه روايته "نعم العبد صهيب لم يخف الله ولم يعصيه" ومعناه أن صهيب الرومي كان يعبد الله لذاته لا خوفا من ناره ولا رغبة فى جنته ، ولو أن الله تعالى لم يخلق نارا ولا جنة لن يترك صهيب عبادة الله بإخلاص ، مع ملازمة طاعته فيما أمر والبعد عن معاصيه فيما نهي تعظيما لذاته جل جلاله ، ومعنى "والدار الآخرة خير" أي والدار الآخرة هى الخير الحقيقي الى لا خير غيره ، و "خير" هنا ليس فعل تفضيل وإنما هو اسم دال على حقيقة الآخرة لأننا لو قصدنا فعل التفضيل لقلنا خير الآخرة أكبر من خير الدنيا ، ولكن لما كان ليس فى الدنيا خير إلا التقوى قال رسول اللهε الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما وألاه ، وقال الله تعالى "**وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا**"[2] قوله تعالى "أفلا تعقلون" أي أفلا تعقلون عن الله ما أنزله عليكم من البيان الذى باتباعكم له نجاة لكم فى الدنيا والآخرة ، ومع بيان الله تعالى وإقامة حججه وعلم هؤلاء اليهود بكل ذلك لم يمنعهم من مخالفة أمر ربهم وتمني مغفرته ، فهل ينتظرون إلا شديد العقاب وأليم العذاب ، خصوصا بعد أن تفضل الله على الخلق ببعثه الرسل وبإظهار البينات والمعجزات الباهرات ليس لحاجة له إلى الخلق وهو الغني المغني تنزه وتعالى ، وإنما هو الفضل العظيم والرحمة الواسعة والحجة البالغة لهم أو عليهم ، قال تعالى وهو أصدق القائلين "**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**"[3].

قوله تعالى : "**وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ**"(170).

"مسك وامسك" بمعني واحد و "**يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ**" أي يحافظون على العمل بما فيه من العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملة ، وهذه الآية الشريفة بشرى لمن آمن من اليهود كعبد الله بن سلام وإخوانه ، وهى وأن نزلت بسببهم فأنها عامة تشمل كل نصراني أو يهودي أو يتبع دين غير الإسلام ، ثم أسلم وتمسك بكتاب الله تعالى . "**وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ**" تقدم الكلام على معنى إقامة الصلاة في سورة البقرة ، ونزيد هنا أن ذكر إقامة الصلاة بعد قوله تعالى "**يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ**" الذى جمع كل أركان الإسلام وفروعه يشير إلى مزية خاصة فى إقامة الصلاة ، لأن من أقام الصلاة على وجهها أقام الدين كله ، والصلاة لا تكمل إقامتها إلا إذا كان المصلي قد أداها بروحه وحسه وجسمه حتى تكون ركعة واحدة منه خير من صلاة الجن والملائكة طول عمرهم ، قالε "المصلي يناجي ربه ومقيم الصلاة عند ربه وربه عنده".

([1]) سورة النساء : 17.

([2]) سورة يونس : 7.

([3]) سورة فاطر : 15.

قوله تعالى **"إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ"** تأويل هذه الآية أن الذين تمسكوا بالكتاب الذى هو القرآن المجيد وأقموا الصلاة إقامة تجعلهم يناجون ربهم سبحانه مناجاة حضور واستحضار لا ينقص الله من أجورهم شيئا بل يزيدهم من فضله و "المصلحين" هم الذين اصلحوا أمر دينهم وآخرتهم ، وأصلحوا معاملة ربهم جل جلاله ، ومعاملة خلقه بحسب الواجب الشرعى ، وأصلحوا أمر دنياهم ، وهذه الآية بشرى من الله تعالى لمن وصفهم بالتمسك بالكتاب وإقامة الصلاة ، فإن رسل الله عليهم السلام كانوا يسألون الله تعالى أن يلحقهم بالصالحين فى صريح القرآن المجيد ، وفى هذه الآية أخبرنا ربنا جل جلاله أنه لا يضيع أجر المصلحين ، فحكم للمتمسك بالكتاب المقيم الصلاة أنه من المصلحين والمصلح هو من أصلح نفسه وغيره فصار من الصالحين المصلحين.

قوله تعالى : **"وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"**(171).

معني هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يخاطب رسوله محمدε بأن يقول لمعاصرية من اليهود عن معجزاتنا التي أيدنا بها كليمنا عليه السلام ومنها أنا نزعنا الجبل فرفعناه فوق رؤوس أمته **"كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ"** حتى علموا **"أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ"** أي عليهم تهديد لهم ليقبلوا ما جاءهم به كليمنا عليه السلام "والظلة" هو ما يرتفع كأسقف البيوت والسحب المتكاثفة **"خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ"** أي أقبلوا ما آتيناكم على لسان موسى عليه السلام "بقوة" أي بيقين ومسارعة إلى العمل **"وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ"** أي أعملوا بما فيه متذكرين أحكامه أمرا أو نهيا وإلا وقع عليكم الجبل فأهلككم.

قوله تعالى : **"وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ"**(172).

وأذكر وقت أخذ ربك ذرية آدم من ظهور ،ووقت اشهاده إياهم على أنفسهم قائلا لهم سبحانه **"أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا"** ومعني هذه الآية الشريفة أن الله سبحانه وتعالى أخذ من ظهر آدم ذريته الأنبياء وواثقهم على أن يبلغوا عباده ما بعثهم به وهذا هو ميثاق الأنبياء الذى سبق أن واثقهم به فى عالم النور لنصرة خاتمهمε ثم أخذ من ظهر آدم ذريته وذرية ذريته إلي يوم القيامة كالتوالد سواء بسواء ، ولم يقل يأخذنا من ذرية آدم بل قال سبحانه **"وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ"** لأن ذلك معلوم ، والعودة إلى قوله "من ظهورهم" . يبين أن الأخذ كان كالتوالد ، وكل مخلوق من بني الإنسان أخذ من ظهر أبيه كالذر ألا أنهم يعقلون ما يخاطبهم الله تعالى به ، فكشف الله الحجاب لهم عن جماله العلي حتى شهدوا باشهاده تعالى لهم ، وبعد أن أشهدهم أقام عليهم الحجة الاعترافية بقوله تعالى فى خبره عن قولهم "قالوا بلي شهدنا" وبعد كشف الحجاب صار كل من أشهده الله هذا الجمال معترفا بأن المشهود المتكلم هو ربه ولذلك قالوا "بلي" أنت ربنا لا شك ، أو لسابق علمه جل جلاله فيهم بأنهم إذا لابست أرواحهم أشباحهم أنستهم لوازمهم الكونية وحظوظهم وملاذهم هذا المشهد الرباني فأخذ عليم العهد والميثاق بقوله تعالى . **"أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ"** أي احذروا أن تنسوا هذا المشهد العلي الجلي الذى اعترفتم فيه بربوبيتى لكم ، فإذا جئتم يوم القيامة وسألتكم عن هذا المشهد تعتذرون إلى فتقولوا "أنا كنا عن هذا غافلين" فإنني لا أقبل بعد هذا الشهود عذرا.

قوله تعالى : **"أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ"**(173).

وهذه الآية حجة قائمة على أنه سبحانه لا يقبل عذر معتذر بعد هذا الدليل الواضح ، ومعناه احذروا أن تعتذروا لدي يوم القيامة بقولكم **"إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ"** أي من قبل وجودنا وكنا ذرية لهم من بعدهم فوجب علينا بحسب العادة أن نقتدي بآبائنا.

"أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ" أي أتهلكنا فتدخلنا نار جهنم يوم القيامة بفعل آباءنا الأولين الذين أشركوا بك من قبل وجودنا ، وهذا اعتذار لا يقبل لأن الله تعالى جمع الآباء والأبناء جميعا فى صعيد واحد وكشف الحجاب عن جماله وأشهد الكل بعيونهم وخاطبهم جميعا بقوله "ألست بربكم" فاقروا بربوبيته جل جلاله بعد العيان لا البيان.

وهنا سر خفي وهو أن جميع بني الإنسان شهدوا واعترفوا وزادهم الله فضلا منه بأن بعث فيهم أنبياء ورسلا ذكروهم بهذا العهد الأزلي وعاهدوهم عهدا ثانيا ، فمن آمن بالعهد الثاني نفعه الله بالأول والثاني ، ومن كفر بالعهد الثاني أهلكه الله بالأول والثاني ، ومن هذا يظهر أن الرسل عليهم الصلاة والسلام وورثتهم أقامهم الله تعالى يذكرون عباده عهدهم الأول قال تعالى **"وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ"**[1] ولا تكون الذكرى إلا بما عرف ثم نسى لطول المدة ، ومن ذكر فإن عهد ألست يكون حجة له ، لأن الجميع قالوا "بلي" وقولهم "بلي" ابتلاء عظيم من الله لأنه سبحانه جمع لعباده فى هذا المشهد جميع ما أراده لهم من سعادة ، فمن قال "بلي" وسبقت له الحسنى قالها بقلبه ولسانه ، ومن قال بلي ولم يسبق له الحسنى ولكن سبقت له السوء كان هذا المشهد حجة عليه يوم القيامة ،ومثال ذلك أن يعترف الرجل بما عليه من دين لرجل آخر ، ثم ينكره عند حلول آجل السداد فإذا ذكر به لا يذكره وإذا استحضر لم يستحضره ، والله تعالى جعل عهد ألست لإقامة الحجة، وأعقبه بعهد الرسل لبيان المحجة ، فمن ذكر بهما فذكرهما فر إلى الله ربه بقلبه وقالبه ، لأن الذكرى نفعته وزادت في إيمانه ، وكشفت له مشهد ألست واضحا جليا ن فشاهدة مع إخوانه من أهل السابقية ، وليس لمنكر حجة على الله ، لأن قضاء الله وقدره محجوبان عن البصائر قبل الأبصار ، والسابقة والخاتمة مجهولان للمؤمنين قبل الكفر ، وهذا هو الأمر الذى أذاب قلوب الأبرار ، وحثهم على القيام بفرائض الشريعة ونوافل السنة ليل نهار ، كما أخبرنا الله العزيز الغفار بقوله تعالى "والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما" حتى إذا أصبحوا من بياتهم دعوا الله تضرعا وخفية **" يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا"**[2] ، وذلك خوفا من سلب الإيمان لجهلهم بما ستكون عليه السوابق والخواتيم.

أما الذين لم يتذكروا فجادلوا وأنكروا ،سواء كفروا أو نافقوا فقد صاروا جنودا لإبليس اللعين ن وأئمة للكثيرين من الحمقى الجاهلين ، ويدعون أنهم أتباع العلماء من أولياء الله الصالحين ، ويبثون بين أتباعهم من بسطاء المسلمين العاملين من عوامل التعصب الأعمي والحقد الدفين ، فيفرقون جميع الأخوة المؤمنين ، بإشعال نار العداوة بينهم ، بواسطة تعصب كل جماعة لشيخهم ، مع إنهم جميعا يعلمون أن النبي هارون اعتذر لأخيه موسى عليهما السلام فقال " **إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ"**[3] أي أنه رأي فى تفرقة الأمة كبيرة أخطر من كبيرة عبادة العجل ، ولهذا أتساءل فى عجب ؟! ما الذى دفع هؤلاء إلى بث تلك العداوة والبغضاء إلا مصالحهم الدنيوية الفانية ، **"أَفَأَمِنُوا**

([1]) سورة الذاريات : 55.

([2]) سورة الفرقان : 65.

(3) سورة طه : 94.

مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ"[1] ، إلا يعلم هؤلاء الأدعياء أن على طالب الله تعالى أن يجتهد فى قتل الشيطان لا فى أذية الإنسان.

"أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ" معنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يواثقهم بعد أن أحضرهم فأشهدهم على أنفسهم وكشف لهم الحجاب فرأوا جماله العلي ثم خاطبهم بكلامه المقدس قائلا لهم "ألست بربكم" فأقروا جميعا بقولهم "بلي" ، بعد أن جمع الله لهم مرادهم منه سبحانه الذى قدره عليهم أزلا ، ثم أكد هذا المشهد وقواه بالميثاق بقوله "أن تقولوا" أي أعاهدكم لئلا تقولوا يوم القيامة عند حسابكم جزاء إنكاركم "أنا كنا عن هذا غافلين" أي ساهين **"أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ"** أي أن تقولوا معتذرين أمام الحساب إنما أشرك آباؤنا من قبلنا وكنا فى الدنيا ذرية لهم مقتدين بما كانوا عليه متمسكين بما ورثناه منهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون "الهمزة" للاستفهام الإنكاري "فتهلكنا" أي تعذبنا عذاب أهلاك كما أهلكت آباؤنا الأولين الذين أبطلوا الحق وابتدعوا غيره بأهوائهم المبطلة ، وهنا قامت حجة الله البالغة ببيعة الرسل الكرام مذكرين لهم هذا العهد الأول ، فبطلت حجة القوم ونفذ مراد الله تعالى فيهم عدلا لأنه عاهدهم سبحانه في مشهد ألست وأرسل إليهم رسله عليهم الصلاة والسلام مبشرين ومنذرين **"وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ"**[2].

قوله تعالى : **"وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"**(174).

أي كما فصلنا الآيات لغيرهم من أمم الرسل السابقين فكذلك نفصلها لليهود من معاصرى رسول اللهε والآيات مع كونها دعوة قائمة بذاتها إلا أنها حجة واضحة أيضا لأن محمداε ولد بينهم فى جاهلية عمياء صماء ولم يكتب ولم يقرأ ولم يدرس أخبار الأمم السابقين ، ومع ذلك فإنه أتاهم بعلم وأخبار لا يعلمها إلا الراسخون فى العلم من أمة عيسى وموسى عليهما السلام ، فكانت أجل معجزة وأقوى على صدقه **"وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ"** بعد تفصيلها مبينة ممثلة أمام عقولهم إذا تجردوا من الحظ والهوى ليرجعوا إلى الحق فيسلمون، فإن "لعل" هنا بمعنى اللام ولا يجوز أن نفسرها بمعناها اللغوي ، لأنها للمترجي ، والمترجي يجهل العاقبة ، والله تعالى علام الغيوب ، وسابق علمه ينفي المعني المعروف بين الناس.

قوله تعالى : **"وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ"**(175).

الخطاب لرسول اللهε ، وتأويل هذه الآية أي اتل يا محمد على معاصريك من بني إسرائيل **"نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا"** أي خبره وحديثه وهو بلعام بن باعوراء ، وقد نبأة الله وعلمه سر الاسم الأعظم وكان مجاب الدعوة فى قومه معظما عندهم ، فلما أن جاء موسى عليه السلام إلى بلاد الكنعانيين خافه القوم على ملكهم وأنفسهم فتوجهوا إلى بلعام بن باعوراء وقالوا له "أنت غياثنا عن الشدائد وقد أقبل علينا بنوا إسرائيل ليسكنوا ملكنا ويخرجونا من بلادنا فادع الله عليهم يكفنا شرهم" فقال "حتى إذا أمر ربي" فسأل الله تعالى أن يأذنه بالدعاء على موسى وقومه فنهاه سبحانه ، فتملقوه وتذللوا له ومنوه بالأماني فسأل الله مرة ثانية فلم يأذن له ولم ينهه ، فحذره رجل مؤمن وقال له أن الله تعالى ما ترك أجابتك إلا لأنه لا يحب أن تدعوا على موسى وقومه.

---

(1) سورة الأعراف : 99.

(2) سورة النمل : 85.

وتأويل هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يخبر معاصري رسول اللهε من اليهود الذين أبوا أن يقبلوا الحق وأقاموا باطلهم فى حادثة بلعام بن باعوراء فأمر رسول اللهε أن يخبرهم بها ، فإنه بعد أن آتاه الله تعالى آياته التى رفعه بها إلى مقامات القرب "فانسلخ منها" أي خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها ، وهنا يظهر أن العلم يهتف بالعمل والا ارتحل ، وكل عالم لم يعمل بعلمه يساق إلى نار جهنم قبل أن يدخلها العصاة والمذنبون بل وعباد الأصنام ، ومن علم مسألة واحدة وعمل بها علمه الله تعالى علم ما لم يعلم ، وإذا رأينا رجلا عمل بمسألة صغيرة من العلم وأكرمه الله بغوامضه من العلوم نحكم أنه من أولياء الله الصالحين.

قال تعالى **"وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ"** وليس العلم من حمل أمثال الجبال من العلم إنما العالم من عمل بما علم ، قال تعالى " **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ"** فمن حمل العلم جميعه ولم يخشى الله فهو جاهل جنده إبليس فى خدمته.

قوله تعالى : **"وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"**(176).

قوله تعالى **"وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا"** أي ولو شئنا له السعادة والخير لوفقناه للعمل الصالح ورفعناه بعلمه إلى مقام القرب منا في رياض الأنس بنا وفى حظائر النظر إلى وجهنا **"وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ"** أي مال إلى الحظ والشهوة والطمع فى غير مطمع معتمدا على ما أتاه الله من الآيات التى تفضل عليه بها ليسارع فى محابه سبحانه ومراضية ، فسارع هو إلى ما يغضبه جل جلاله "واتبع هواه" أي اتبع نفسه الأمارة بالسوء وطبعه الخبيث غير مراقب جانب الله تعالى ولا خائف من عقوبته **"فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ"** أي جعله الله كالكلب ، ووجه الشبه أن الكلب إذا حملت عليه يلهث أي ينبح ويخفق قلبه ، وإذا تركته استدام على حالة من غير توان ، فكذلك هذا الرجل الذى أكرمه الله تعالى بالآيات فاغضب الله تعالى بها ، فكان يدعو على موسى عليه السلام حتى أندلع لسانه ، فبئس الرجل الذى هو كالكلب حقا ، فإذا قهره الله فأخرج لسانه من فمه إلى صدره كان للقوم دليلا على أن محاربة الحق فى ذات الرسل صلوات الله عليهم ، أو فى ذات ورثتهم يجلب بلاء كبير وخذلان عظيم لمن يحارب أنصار الحق وأهله.

"فَاقْصُصِ الْقَصَصَ" أي فبين لهم أخبار السابقين كما بينتها لك **"لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ"** فى صدق ما جئتهم به وأن الله حق صادق في وعده ووعيده ليسارعون إلى الإسلام.

قوله تعالى : **"سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ"**(177).

ساء هنا فعل ماض بمعني بئس ن والمعني ساء المثل مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا وبما أنزلناه من الكتب وبما أرسلنا من الرسل ، وهى آيات الله البينات **"وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ"** بإنكارهم على رسلنا عليهم السلام ، وبمخالفتهم ما بينا لهم وببقائهم على ما كان عليه آباؤهم من الآراء المضلة والعقائد الفاسدة.

قوله تعالى : **"مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ"**(178).

هذه الآية الشريفة حجة على أن الله هو الذى خلق أفعال العباد ، وأن العباد ليس لهم قدرة على أن يخلقوا عملهم ، وأن كان مذهب المعتزلة أن العبد يخلق أفعال نفسه لأن الله يثيبه على الحسن منها ويعاقبه على السئ منها، وكل أهل العلم جميعا مجمعون على أن الله هو الخلاق العليم ، وأن بني الإنسان مظهر لأحداث ما قدره أزلا ، وليس للإنسان حول ولا قوة على أن يوجد ما يحب أو يمنع ما

يكره ، وإنما نسب إلى الإنسان ما لا يليق بالعلي العظيم كالأكل والشرب والنوم والمرض والركوع والسجود وما هو من شأن المحدث الضعيف المقهور ، أما ما عدا ذلك من حركات وسكنات وارادات ومشيئات وعلم واختراع فإن ذلك كله بتقدير الله ويخلقه فى العبد كما قال تعالى **"أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ"**[1] فينسب إلينا الأمناء لأننا محلة ونسب لذاته العلية الخلق **"أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ"**[2] فنسب لنا حراثة الأرض لأنها تحتاج إلى آلات وأدوات تحرث وعقل يفكر وجسم يتحرك وعضلات ترفع وتخفض ، والعلي العظيم تنزه عن كل ذلك ، ولكنه نسب لنفسه سبحانه وتعالى الزرع فهو الزارع جل جلاله **"أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ"**[3] فنسب إلينا الشرب والمنفعة ونسب إليه جل جلاله إنزال الماء من السماء **"أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ"**[4] فنسب إلينا إبراء النار أي إيقادها ونسب إليه سبحانه إنشاء شجرتها فالأفعال التى لا تليق بجنابه العلي مما تقوم به الحجة على أننا عبيد مربوبون وعباد مقهورون وبعبادته مكلفون كل ذلك نسبه إلينا ، ونسب لذاته العلية كل ما يليق به جل جلاله من إيجاد وإمداد وخلق وأمر ، رزقنا الله حسن الأدب معه سبحانه ومنحنا اليقين الحق فى مشاهد التوحيد.

ومعني **"مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي"** أي أنه قدر فى الأزل هداية من اصطفاهم وسبقت لهم من الحسنى ، كما قدر إضلال من أبعدهم وحجبهم فلم تسبق لهم الحسنى ، قال تعالى : **"فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ"** وقد تقدم بيان معنى الهداية والإضلال ، **"فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ"** الإشارة عائدة إلى من شنع الله عليهم من يهود بني إسرائيل ، والآيات وأن كانت خاصة إلا أن حكمها عام ، وقد تقدم معني الخسران نعوذ بالله تعالى منه ومن أهله.

قوله تعالى : **"وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"**(179).

و "ذرأ" أي خلق وأبدع وأوجده ، ومعني **"ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ"** أي خلقنا لجهنم أقواما سبق فى قدرنا أنهم أهل جهنم وهم كثير من الجن والأنس ، وهؤلاء هم الذين بينهم المشاكلة فترى أله جهنم فطروا على ما فطرت عليه الشياطين من العناد والإنكار وتكذيب رسل الله تعالى وفتح أبواب الفتن المضلة ، وإطلاق الإباحة للجوارح فيما يضر ولا ينفع ، لأن قلوبهم لا تفقه الخير وتميل إلى الشر ، وعيونهم لا ترى جمال الإبداع فى الآفاق فتستدل به على الحق ، وإنما ترى ما يشبع رغباتهم وشهواتهم وما يملأ بطونهم ، وآذانهم لا تسمع ما يحبه الله وإنما تسمع ما يتفق مع أهوائهم وحظوظهم وأن كان يغضب الله تعالى . وهذا دليل على أنهم من أهل جهنم ، ولو أنهم آمنوا بقوله سبحانه "وهو معكم أينما كنتم" لذابت قلوبهم قبل الوقوع فى المعصية ن لأن الإنسان يأبى أن يسرق رجلا يقظا ، أو يزني علنا ، أو يذم أحدا فى حضروه ، فكيف يرتكب المحرم فى خلوة وهو يعتقد أن الله معه يسمعه ويراه ويقدر عليه ، وأما أهل الجنة وهم الذين جملهم الله بجمال رسولهε ، فحسن أخلاقهم ومنحهم التسليم والإنقياد لله ولرسوله ولأهل العلم بالله ، فآذانهم تسمع الحكمة والموعظة الحسنة ، وأعينهم ترى جمال أسماء الله وصفاته في الكائنات حولهم . يكرهون الفتنة وأهلها والعناد وأهله ، وتراهم فى ليلهم قائمون ، أما

([1]) سورة الواقعة آية : 58.

(2) سورة الواقعة آية : 64.

(3) سورة الواقعة آية : 69.

(4) سورة الواقعة آية : 72.

بالفعل وأما بالنية ، وفى نهارهم صائمون فإن لهم يصوموا بترك الأكل والشرب صاموا بأعينهم وآذانهم وألسنتهم عما يغضب الله ربهم ، وهم عند الله أكرم عليه من الملائكة . يحبهم الله ويحبهم عباد الله وهم رحمة الله بين خلقه رضى الله عنهم ونفعنا بهم.

"لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا" الضمير فى لهم كناية عمن ذمهم الله تعالى فى الآيات السابقة لأن لهم قلوب تفقه ولهم آذان تسمع ولهم أعين تبصر ولكنهم لا يفقهون إلا الشر والفتن ، ولا يسمعون إلا الغيبة والنميمة والشقاق والعناد ، ولا يبصرون إلا قبائح الناس وعيوبهم فينتقدون عليهم ويشيعون عنهم الفاحشة ، لا فرق عندهم بين أولياء الله وبين أعداء الله ، وقد يمسكون ألسنتهم عن معايب الكفار ولا ينظرون إليهم ، ولكن محل نظرهم إخوانهم المؤمنون ، فلا تجلس فى مجلسهم إلا وتسمع المسالب والمعايب والسباب ، وربما كان ذلك فى ولي من أولياء الله تعالى فيقعون فى حرب الله . قالε فى حديث قدسي عن الله تعالى "من آذي لي وليا آذنته بالحرب" والله تعالى يخبرنا أنه خلق القلوب والاسماع ، لتفقه القلوب آيات الله وتعظمه ، ولتسمع الآذان العلوم النافعة وتحملها ، ولتشهد الأبصار آيات الله الظاهرة فى الكائنات فتعتبر بها ، فيشهدهم الله جماله العلي البهي ، أما غير هؤلاء فقد حكم الله عليهم أنهم ليس لهم قلوب يفقهون بها آيات الحق وأن فقهوا بها ما يكرهه سبحانه وتعالى **"أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"** هذه الآية الشريفة مما شنع الله به على من ذرأهم لجهنم الذين أخبرنا عنهم سبحانه بقوله **"لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا"** . . . الخ الآية.

وفى هذه الآية أجمل الله ما فصله فى الآية قبلها ، أجمالا جمع كل قبائح من شنع الله تعالى عليهم من خصال الشر ، فقد شبههم بالأنعام السائمة فى حياتهم لفقدهم ما به يكون الإنسان إنسانا بالمعني الذى به يدرك ويعتبر ويفكر ويريد ويميز بين الخير الذى ينفعه فى الدنيا والآخرة ،وبين الشر الذى يضره فى الدنيا والآخرة ، فيسارع إلى الخير ، ويتباعد عن الشر وكل من لم يتجمل بتلك الصفات التى تميز الإنسان عن البهائم الراتعة فهو أشبه المخلوقات بها ، لأنه ضيع أمانة حق الاختيار بين البديلات التى حملها وتميز بها عن كافة المخلوقات ، وجعله الله بها خليفة فى الأرض وسخر له كل شئ.

وهناك أناس هم أشر من هؤلاء وهم الذين أشبه بالشياطين حيث تشبهوا بهم فى الحسد والعناد والفتن والتفرقة وإلقاء البغضاء والشحناء بين الناس ومحاربة كل داع الإصلاح قال تعالى **"شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا"**[1].

فاللذين ذمهم الله بأنهم كالأنعام هم الهمج والرعاع أتباع كل ناعق ،الذين لا تفقه قلوبهم ما أنزل الله تعالى على رسله عليهم السلام ولا تسمع آذانهم أمر الله تعالى ونهيه ،ولا تبصر أبصارهم حجج الله وبيناته ، وأما الذين هم أضل من الأنعام فهم شياطين الأنس الذين لهم قلوب تفقه الخبث والكيد والعناد والحسد ، ولهم آذان تصغي إلى الزور من القول والبهتان ،ولهم أعين يبصرون بها شذرا أو حسدا أو غيظا وبغضا ، وهم شياطين الأنس كما قررت لك.

"أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ" الذين غفلوا عن حكمة إيجادهم وإمدادهم وعن النظر فيما أحاط بهم من آيات الله ونعمه العديدة مما ابدعة الله فى أنفسهم ، ومن الحكمة والحجج والدلائل والعلامات الدالة على توحيده سبحانه وغناه الذاتي عن الخلق أجمعين ، والإشارة عائدة إلى من ذراهم لجهنم ممن فصل لنا صفاتهم وهم اليهود والنصارى وكفار قريش ومن على شاكلتهم إلي يوم القيامة.

([1]) سورة الأنعام آية : 112.

وكما أن بذور النباتات مفيدها وخبيثها لا ينقطع من الوجود فى هذه الدار الدنيا فكذلك آثار أهل الكفر والنفاق لا ينقطع من الوجود أبدا ، ولكن إذا ظهر أهل الحق خنثوا وإذا ظهر أهل الباطل انكشفت حقائقهم ،وفى ظهور أهل الحق يكونون كما أخبر الله عنهم "ولتعرفنهم فى لحن القول".

قوله تعالى : **"وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ"**(180).

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن رجلا صحابيا دعا الله فقال "يا الله يا رحمن" فقالت قريش ان محمداε يدعى أنه يعبد آلهها واحدا والحال أن لهم آلهة فهم يقولون "يا الله ، يا رحمن" فقصم الله ظهورهم بقوله تعالى **"وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا"** والسبب وأن كان خاصا فالخبر عام ، وتأويل هذه الآية الشريفة أن الاسم غير المسمى ، فقد يكون للواحد أسماء كثيرة تتعلق بصفاته فيقال فلان عالم وشاعر وخطيب وطبيب وأمام وفقيه وكلها لذات واحدة ، وكذلك ذات الله أحدية ليست من شئ ولا على شئ ولا فى شئ ولا من حقيقتها شئ وليس كمثله شئ تنزه ربنا وتعالى ، وهو سبحانه له أسماء ذاتية كالاسم الأعظم "الله" وله أسماء هوية كالأحد والصمد والقدوس والسبوح والأول والآخر والظاهر والباطن الخ . وله أسماء المعاني التى تؤثر "كالمريد والقادر والحكيم والمعطي والوهاب والمعز والمغني والوهاب والتواب والغفور والعفو الخ . وقد ورد عن رسول اللهε أنها تسع وتسعون أسما أي مئة إلا واحدا ، كما ورد أن من أحصاها أو حفظها أو رددها دخل الجنة.

ومعني **"فَادْعُوهُ بِهَا"** أي فاسألوه بها عند الاضطرار بحسب المناسبة ، فالمريض يسأل الشافي ، والجائع يسأل المقيت ، والعاري يسال الستار ، والمدين يسأل الوهاب ، والمذنب يسأل العفو ، والغفور والتواب ، والمنعم عليه يسأل الشكور أن يعنيه على الشكر والخائف يسأل الحفيظ الأمن والسلام، وهنا لطيفة وهى أن تعالى أخبرنا أن أسماءه كلها حسنى ليس فى أسمائه شر ولا ظلم ، وظهور أي م من أسماء الجلال فى تلك الدار فهو للإحسان بالعبد ، فإن الشدائد تجذب العبد إلى الله تعالى فيتوب ، ويكون اسم الجلال إحسان من الله تعالى للعبد ، فثبت أن أسمائه صفة وكل معانيها صفات لله تعالى لا تقتضي تعدد الذات.

"وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ" هذه الآية الشريفة ليست مما نسخ لأنها تنديد ووعيد من الله تعالى مثل قوله سبحانه **"ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ"**[1] وكأنه سبحانه يقول "ذر الذين يلحدون فى أسمائنا" أي أمهلهم أنت حتى يأتيهم العذاب من حيث لا يعلمون ، "والحد ولحد" بمعني العدول والانحراف عن الحق ومنه اللحد الذى هو القبر ، لأن اللحاد الذى يلحد الموتى عدل بهم عن جانب الإحياء ، وقال بعض أهل اللغة "الإلحاد" هو العدول والانحراف عن الحق والاعوجاج "ولحد الشئ لحدا" أي ركنه فى مكان معود "فلحد عنده" أي ركن عنده "ويلحدون فى أسمائه" أي يعدلون بها ويحرفوها كما فعل الجاهلية فجعلوا لهم صنما سموه "العزى" عدولا وانحرافا عن العزيز ، وسموا آخر "اللات" مؤنث الله.

"سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" هذه الآية الشريفة فيما محذوف ملحوظ تقديره سيجزون عقوبة أو جزاء ما كانوا يعملون بقلوبهم من العقائد المضلة وبجوارحهم من أعمال الكفر والنفاق يوم القيامة ، وجائز أن يعجل الله جزاءهم فى الدنيا بالقتل والسلب والرق والجزية ويكون عذاب يوم القيامة أشد وأبقي.

قوله تعالى : **"وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ"**(181).

([1]) سورة الحجر آية : 3.

"الواو" هنا للاستئناف "ومن" هنا للتبعيض "ومن" الثانية اسم موصول دلالة على جميع الخلق . و "خلقنا" صلة و "أمة" مبتدأ مؤخر والجار والمجرور خبر مقدم **"يَهْدُونَ بِالْحَقِّ"** أي يدعون الناس إلى توحيد الله وعبادته بالحق الذى أنزله الله إليهم على لسان خاتم أنبيائه عليهم الصلاة والسلام **"وَبِهِ يَعْدِلُونَ"** أي يحكمون وهم أمة خاتم الرسل عليهم السلام كما قال تعالى : **"وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ"**[1].

وقد تقدم الكلام على هذه الآية فى هذه السورة ، وهذه الآية الشريفة تشير إلى أن أهل الحق قليل العدد كثير المدد بالنسبة لأهل الباطل ولقوله تعالى **"وَقَلِيلٌ مَا هُمْ"**[2] وما كثر أهل الكفر بالله إلا لكثرة نعم الله عليهم كثرة استحال معها حصر النعم ، وما عصى الله عاس إلا بما أولاه الله سبحانه من النعم عيه ، فإن المريض لا يقوى على مخالفة الله وكذلك الخائف والضعيف والجائع.

قوله تعالى : **"وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ"**(182).

أي كذبوا بحججنا القائمة وبآيتنا المنزلة وبأنبيائنا المرسلين إليهم ، "والاستدراج" هو إمهال أهل الكفر والكبائر مع اسباغ النعم عليهم حتى يعتقدوا أنهم أحسنوا فأحسن الله تعالى لهم ثم يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر "واستدراج" هو اختبار الله أهل معاصيه ن وفى خفى الاستدراج ولطيف المكر قال تعالى فى الآية التالية:

قوله تعالى : **"وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ"**(183).

"وَأُمْلِي"أي أأخرهم وأطيل أعمارهم وأكثر أموالهم وأعافي أبدانهم **"إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ"** أي لطيف الاستدراج وخفي الإمهال لهم بحيث يعتقدون أن ما هم فيه نالوه بحولهم وقوتهم أو عن استحقاق إكراما من الله تعالى . كما أخبرنا سبحانه عن قول المغرور به **"رَبِّي أَكْرَمَنِي"** وهو يقولها معتقدا أنه يستحق الإكرام من الله تعالى وهو ليس كذلك فإن ما هو فيه من النعم الوافرة استدراج من الله تعالى له ، ومثله أيضا من قال **"رَبِّي أَهَانَنِي"**[3] ناسبا الظلم إلى الله تعلى يعتقد باستحقاقه للإكرام ولكن الله آهانه ،وهذا سوء أدب مع الله تعالى.

قوله تعالى : **"أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ"**(184).

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن رسول اللهε وقف على الصفا ونادي فى جمع قريش قائلا يا بني فلان يا بني فلان ثم أنذرهم وبشرهم ان سمعوا وأطاعوا ، فقال أبو لهب أن محمداε مجنون بات ليلة إلى الصبح فوق الصفا ، فأنزل الله تعالى قوله تعالى : **"أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ"** والجنون معلوم ، فنفى عن رسوله صلوات الله وسلامه عليه ما وصفه به كفار قريش ، وأثبت له أنه رسول الله إليهم الرؤوف الرحيم بهم الغيور على مناسك الله الداعي إليه سبحانه بالحق لنجاتهم وفوزهم بالحسينين ، إذا تركوا ما أنذرهم بتركه ، وأطاعوه فيما أمرهم به ، ومعنى هذه الآية أن الله نفي عنهم التفكير فيما جاءهم به رسول اللهε من عنده ، وأثبت أن نفوسهم عنادية نزاعة إلى الشر ، وأن طباعهم خبيثة لا تقبل إلا الباطل والضلال ، لحرمانهم من النور الذى يكشف الحقائق أمام عقول المتفكرين.

([1]) سورة الأعراف آية : 159.

(2) صورة ص آية : 24.

([3]) سورة الفجر آية : 15 – 16.

"إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ" هذه الآية الشريفة بينت مقام محمدε عند الله تعالى وأنه أرسله رسولا من لدنه إلى عباده "ينذرهم" أي يخوفهم من عقوبة الله تعالى ومخالفتهε و "مبين" أي يبين ما بعثه الله به إلى عباده بيانا تقله العقول المجردة عن الحظوظ والأهواء وسلمت من الأحقاد والبغضاء ، وعمرت بالمحبة والمسالمة.

قوله تعالى : **"أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ"**(185).

أن الله تعالى بشر من آمن به وبنبيه محمدε وبما جاء به عليه الصلاة والسلام من غير بحث ولا جدال بعد سماع القرآن المجيد الذى هو المعجزة الكبرى ، وبعد أن أظهر الله ما أظهره من إكرام نبيه عليه الصلاة والسلام من المعجزات الباهرات وأثني على هؤلاء بأنهم على هدي من ربهم وأنهم هو المفلحون.

ثم أمر عباده بالنظر والبحث بعد الإيمان والتسليم فى آيات كثيرة من القرآن الكريم لتحصيل العلم والعمل به فقال تعالى **"إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى"**[1] ، وقال تعالى : **" لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ"**[2] . ثم أمرنا بالنظر فى الآيات المنبلجة فى الكائنات بقوله : **" وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"**[3] ، وقوله تعالى : **"قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"**[4] وبعد أن بين الآيات الجذابة لأرواح أهل القلوب السليمة ، وبقي أهل النفوس العنادية على حالهم لأن الله ختم على قلوبهم وأقام الحجة عليهم حتى إذا أخذهم لم يفلتهم.

وفي هذه الآية الشريفة تشنيع على أله الجهالة والعناد فقوله جل شأنه **"أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"** أي فى بدائع ابداعها وغرائب صنعها وعجائب ما أحتوت عليه من أسرار القدرة والحكمة ،وهذه الآية حجة على أن السموات والأرض رغم ما في ملكهما من الآيات والبينات والأسرار الجليات ، لا تكفي أهل الإيمان فى بيان ما لله من حجج التوحيد وعلاماته وبراهينه ودلائله ، ففيها إشارة إلى أن المؤمن لا يكمل ليمانه حقا إلا إذا نظر فى ملكهما بعين الفكرة ، ورأي ما فيهما من عبرة ، ثم ساح بروحه فى ملكوتهما حتى يبلغ مقام اليقين مثل أبيه إبراهيم ، قال تعالى : **"وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ"**[5] إذ لا بد من الحيرة إلى أن يعثر أهل النظر والاستدلال على ما يقع به العلم على عين اليقين ولديها يكون مؤمنا كاملا ليس للشيطان عليه سلطان.

"وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ" أي ما أوجد الله من شئ في السموات والأرض وفيما فوق ذلك من عالم علين وأعلى عليين ، بل وعالم الأرواح الهائمة فى جلال الله ، إلا وفيه رقى لأهل الإيمان والتسليم ، ولو أن أهل الكفر بالله نظروا إلى هذا الوجود بفكر مجرد من الحظوظ والأهواء ، لبلغوا مقام القرب من الله تعالى ، ولسقاهم ربهم شرابا طهورا من دنان محبته سبحانه ، **"وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ"** بهذه الآية ينذرهم ويخوفهم من أن يكون قد أقترب أجلهم فيموتون قبل الإيمان بالله وبموتهم

([1]) سورة طه آية : 54.
(2) سورة ص آية : 29.
([3]) سورة آل عمران آية : 191.
(4) سورة يونس آية : 101.
(5) سورة الأنعام آية : 75.

على الكفر يخلدون فى نار جهنم حيث لا يقبل الله من نفس إيمانها ولم تكن آمنت فى الدنيا **"فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ"** هذه الآية تزعج القلوب التى سبقت لها الحسنى من الله تعالى ، ومعناها أن القرآن العظيم هو خاتم الكتب السماوية وأن محمدε هو خاتم الأنبياء ، فلا كتاب بعد القرآن ، ولا نبي بعد محمدε ، فإذا لم يؤمنوا به ويسلموا له فأى حديث يأتي بعده يؤمنون به ، ومعني الحديث هنا هو القرآن لأنه خبر من الله تعالى لعباده جميعا ولا حديث بعده ، لأن القرن المجيد مهيمن على الكتب السماوية ورسول الله محمدε خاتم الأنبياء.

قوله تعالى : **"مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ"**(186).

فى هذه الآية الشريفة صريح التوحيد ، وهى حجة قاصمة على منكري القدر ن معناها أن الله سبحانه وتعالى إذا أضل عبدا من عباده استحال على أحد من الخلق أن يهديه ، نبيا كان أو ملكا ، وليا كان أو عالما ، لأنه جل جلاله أنفرد بهداية الإحسان واختص الرسل والأنبياء والأولياء بهداية البيان . قال الله تعالى : **"وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ"**[1] ، وبهذا نعتقد حق اليقين أن الله خلق قوما لجنته ولا يبالي ، وخلق قوما للنار ولا يبالي ومن خلقهم للنار لا يدخلون الجنة أبدا ولو ملأ الأرض عبادة وعلما وحجتنا فى ذلك إبليس ، وما كان عليه فى البداية ، ثم ما صار إليه فى النهاية.

ومن خلقه للجنة لا يدخل النار أبدا ولو عاش أكثر عمر فى المجوسية وهم بقتل خير البرية ، وحجتنا فى ذلك عمر بن الخطاب ، وتأويل هذه الآية وأشباهها إلى غير مدلولها الصريح تعسف ، والملك المطلق الخلاق العظيم لا يسأل عما يفعل وهم يسألون **"وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ"** أي يهملهم ويتركهم فيما هم فيه مما قدره جل جلاله من إضلالهم وعنادهم **"يَعْمَهُونَ"** أي يتخبطون فى الضلال ، والعمه هو عمي البصيرة ، والعما هو فقد البصر ، وكما أن الأعمى يتخبط فى طريقه لا يهتدي إلى الصراط السوي فكذلك الاعمه يتخبط فى سيرة إلى الله فلا يهتدي إلى الحق.

قوله تعالى : **"يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"**(187).

قوله تعالى : **"يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا"** تأويل هذه الآية الشريفة أن اليهود سألوا رسول اللهε عن الساعة ومتى وقت قيامها زاعمين العلم بها ، قائلين أن كنت نبيا فأخبرنا بوقت قيامها وهو امتحان منهم لرسول اللهε لأنهم يعلمون من التوراة أن الله أنفرد بعلم الساعة دون غيره ، فإن أخبرهمε بالساعة اتهموه وأن أي ان يخبرهم صدقوه ، ولكنهم قالوا أنا نعلمها كيدا منهم ومكرا **"أَيَّانَ مُرْسَاهَا"** أي متى يكون زمنها لأن "أيان" سؤال عن زمان وتعيينه و "مرساها" أي وجودها وظهورها.

"قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي" أمر من الله تعالى لرسولهε أن يجيب السائلين بأن علم الساعة خاص بالله تعالى وهو عنده فى مكنون غيبه لا يعلمه إلا هو ، وإخفاء علم الساعة عن الخلق لحكمة هي أن يدون خوف المؤمنين من قيامها على غرة منهم ، كساعة الإجابة فى يوم الجمعة وكإخفاء ليلة القدر فى شهر رمضان ليحيى الراغبون يوم الجمعة كاملا ، وشهر رمضان بأكمله التماسا لساعة الإجابة ، ومعني الآية قل يا محمد أن علم قيام الساعة عند ربي، لم يطلع عليه أحد من خلقه **"لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا**

([1]) سورة العنكبوت آية : 18.

إِلَّا هُوَ" أي لا يظهرها ويشهدها خلقه في وقتها الذى قدره لها إلا هو جل جلاله ، فلا يعلم أحد وقتها إلا عند قيامها **"ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ"** أي غابت فيهما فلا يعلمها أحد لخفائها عنهم ، وجائز أن يكون معنى ثقلت في السموات والأرض ثقلت على كل الخلق لأن أولها النفخة الأولي التى يصعق بها من فى السموات والأرض فهي ثقيلة على كل حي ، لأن وجودها يصعقهم جميعا أي يهلكهم فلا يبقي منهم أحد كما قال تعالى **"وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ"**[1] ومشيئته هنا خاصة بمخصوصين الذين قتلوا في سبيل الله والذين جاهدوا فى سبيله بكل أنواع الجهاد.

"لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً" أي لا تقوم الساعة إلا بغتة مباغتة . وقد قربها رسول اللهε حتى جعلها أقرب من وضع الإنسان اللقمة فى فمه.

"يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا" الآية فيها تأخير وتقدي ، وتقدير ذلك يسألونك عن الساعة كأنك حفى ، "وحفي" أي حريص على أجابتهم رؤوف رحيم بهم **"قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"** وقد تقدم قوله تعالى فى أول الآية **"يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي"** ، وهنا "يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ،وفى هذا سر فوق مقدار العقل لأن السؤال الأول عن وقت قيامها وهذا غيب يعلمه ربنا جلا جلاله ، والسؤال الثاني عما يتجلي فيها من معاني جماله وجلاله وكماله وعدله مما هو فوق حيطة الربوبية ، فإن الرب هو مربي الخلق بجوده ونعماه وفضله وكرمه ، وأما الاسم الله فإنه جل جلاله ينعم الأرواح يوم القيامة بشهود غيبه المصون وسماع كلامه المقدس ومواجهته لخواص خواص أحبابه حتى يروه جل جلاله منزها فى قدسه الأعلى ولذلك قال : **"قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ"** لأن حضرة الألوهية حضرة إطلاق فوق مقدار العقول **"وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"** أي أخفينا تعين قيام الساعة عن الخلق أجمعين ، فعلم حكمة إخفائها من علمناه ذلك وهم القليل الذين جملتهم بشكرى ، وأكثر الناس لا يعلمون سبب إخفائها ولا تقديرها ولذلك يسألونها ولو أنهم علموا حكة إخفائها لما سألوك هذا السؤال.

قوله تعالى : **"قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"**(188).

سبب نزول هذه الآية الشريفة أن قريشا سألوا رسول اللهε بأوقات الغلاء والرخاء حتى تشتري الرخيص وتبيعه غاليا فتربح ، وبأعوام الجدب حتى تدخر القوت لوقت الحاجة ، ولو أنهε أخبرهم بذلك لاتبعوه مبهورين كما أتبع اليهود موسى لما رأوه من المعجزات المحسوسة وأتبع النصارى عيسى لما رأوه من المعجزات المحسوسة لا تلبث إلا قليلا وتنسى فيضل القوم كما فعل بنو إسرائيل مع موسى عليه السلام حين قالوا له "أجعل لنا آلها" قبل أن تجف أقدامهم من الماء ، رغم أن المعجزة التى أظهرها موسى فى البحر تحير العقول وتلتصق بالذاكرة فلا تنسى بهذه السهولة ،وكذلك ما أظهره عيس من المعجزات وقد ضل فى زمنه أخلص تلميذ له ، فإن عيسى عليه السلام لم أحيا عاذر أكراما لوالدته وكان معه حواريه بطرس قال له "أنت الرب" فكفر وهو أمام عيسى عليه السلام ، ولما كانت معجزة رسول اللهε هى الحكمة البالغة والبيان الجلي وكشف الحقائق بلسان العباد ، حفظ الله بها القلوب من الشك والريب إلى وقتنا هذا بل وإلى يوم القيامة ، لأن معجزتهε غضة رطبة كلما تليت أشرقت أنوارها وجذبت القلوب اسراراها وهى القرآن المجيد ، لذلك لم يشأ الله تعالى أن يعلم

([1]) سورة الزمر آية : 68.

السائلين بيوم القيامة رحمة بهم أن يشتغلوا بسؤال رسول الله عن الغيوب شغلا يلههم عن القرآن والإيمان ، ومن لم تجذب قلبه إلى ربه الحكم العلية والآيات الجلية فأنه لو قامت أمامه ألف معجزة ومعجزة فأنه لا ينتفع بها فى الدنيا ولا فى الآخرة ، وخير ورثة رسول اللهε من أذن لهم فى البيان وعلموا الناس ما لم يكونوا يعلمون.

قوله تعالى : **"إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ"** فى هذه الآية الشريفة قهر للمتكلمين فى القدر المنكرين له الذين يقولون أن العبد يخلق أفعاله ، وكان الأولى بهم أن يقولوا أن الله تعالى جعل العبد سببا لإظهار قدره الذى قدره عليه ، والمسبب هو الله تعالى فهو المقدر أزلا ، وإلا فمن الذى خلق الإنسان وجعل له اللطائف النفسية والمعالم البدنية ومن الذى سخر له ما في السموات وما فى الأرض جميعا منه ، أذن أين قوة العبد وقدرته التى يخلق بها أفعاله ، اللهم احفظنا من الهوى الذى هو أخو العمى فكل من قاس الغائب بالمشهود هلك وأهلك غيره ، لأن الغيب المعنوى لا يقاس بالمشهود المادي والعقل حاكم على الخلق لا على الحق ، والحكم لله وحده لا للعقل فإن العقل يجهل سر أدني مخلوق وهو البعوض الذى قد يكون للبعوضة الواحدة منه عشرات العيون وعشرات الأرجل وعدة أجنحة ومعدة وكيد وطحال وقوة حياة وعقل تدبر بها شئون حياتها ومعاشها ، مع أن تلك الأعضاء لا تري إلا بأكبر نظارات معظمة ، والعقل يجهل حكمة إيجاد هذا البعوض وخواصه ونفعه وضره وكثرته وقلته ، فالبعوض أنواعه كثيرة وأشكاله عديدة لا تعد ولا تحصي لأن كلمة البعوض تطلق على كل أنواع البكتريا والمكروبات والفيروسات الدقيقة التى لا ترى بالعين المجردة ، وكم لهذا البعوض من حكم جمة لو عرف الإنسان بعض حقائقها لخر ساجدا لله ربه ، وأعلن عجزه أمام عظمته ، ولتحير عقله فى غرائب حكمته وعجائب قدرته ، وكيف لا يفعل وهو يرى هذا البعوض على صغر حجمه بعضه نافع مفيد ، والبعض الآخر ضار وعربيد ، وقد ورد فى القرآن العظيم آيات كثيرة تشير إلى أن أمور كل تلك المخلوقات رهن مشيئة الله تعالى وسنبينها عند ورود ذكرها أن شاء الله تعالى.

"وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ" هذه الآية الشريعة اختلف فيها أهل التفسير رغم ظهور مرماها ووضوح معناها ، فالقوم يسألون رسول اللهε عن علم الغيب المادي الذى يحدث فى الدنيا إذا ليعدوا العدة للأحداث القادمة من الجدب والرخاء ، والمرض والشفاء ،والرخص والغلاء ، لكي يتخذوا الحيطة لما يأتيهم من ضراء ، ويعملوا على دوام النعيم والسراء ، وهذا غيب لا يهم صغار السالكين ،ولا يعنى أهل اليقين المتوكلين على رب العالمين ، فقد عرفوا أن هذا قدر واقع بالعبيد سواء علموه أم جهلوه ، ولهذا استغرقوا جميع أنفاسهم فى طلب العلم المعنوي المكنون ، الذى يتفضل الله به عليهم من الغيب المصون ،والذى ينفعهم فى الآخرة يوم الدين **"يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ"**[1] وهذا هو الخبر الحقيقي الدائم وليس ما يطلبه القوم الجاهلون . من متاع دنيوي زائل لو كان يعقلون، وبالتالي فهو ليس بخير حقيقي كما يظنون.

"وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ" لك أن تقول تم الكلام عند **"لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ"** ، والجملة التالية نافية لمس الشر عن رسول اللهε والشر هنا هو الجنون الذى نسبوه إليه عليه الصلاة والسلام ، وجائز أن تكون "الواو" للعطف بمعني وما مسنى السوء الذى تعتقدونه سؤا من الجوع والمرض والعناء الذى يصيبني بصفتي عبدا مخلوقا إنسانا **"إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"** بعد أن بينε أنه لا يعلم وقت الساعة ولا يعلم الغيب الذى يريدونه منه ، أعلن فى هذه الآية الشريفة أنه عبدا لله أرسله الله

([1]) سورة الشعراء آية : 89.

نذيرا للكافرين المكذبين به ، والمنكرين رسالته الذين لا يقبلون منه رغم وضوح حجته ، وبشيرا للمؤمنين الذين يسارعون إلى محاب الله ومراضية سبحانه قياما بما أمر وتركا لما نهى ، مبالغة فى البشارة "والبشري" هى خبر يسر لم يكن يعلمه السامع من قبل "والإنذار" هو خبر يهذب ويؤدب ويخوف النفوس بأمر لم يكن يعلمه السامع من قبل "لقوم يؤمنون" . أي أن بشائرهε وإنذاره قبولها منه خاص بأهل الإيمان فقط ، وأما أهل الكفر وأهل النفاق فإن الله ختم على قلوبهم وأصم آذانهم وأعمي أبصارهم.

قوله تعالى : **"هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ"**(189).

هذه الآية الشريفة برهان على التوحيد الكامل وحجة على تفريد الله بالإيجاد والإمداد مهما تعددت الأنواع بأسبابها المختلفة ، وأن أسماؤه تعالى وصفاته ،وهى شفاء لأمراض النفوس وتزكية لها ، كما أن الآية داعية إلى العطف والتحابب بين الزوج وزوجه ، بل وتبادل الاحترام بينهما مما يوجب سعادة الأسرة فهذه الآية جماع علم الدين والدنيا والآخرة ، لأن قوله تعالى : **"هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا"** الإنسان فى مراكش يعطف على أخيه فى الهند عطف نسب وقرابة ، فإذا أضفت هذا العطف على أخوة الإسلام كان ذلك أقوي وأمتن.

وفى هذه الآية بيان أن النوع الإنساني من رجل واحد ن ومن هذا الرجل خلق الله زوجه حواء ، فالمجتمع الإنساني الآن من نفس واحدة فالذي قدر جل جلاله أن يخلق هذا المجتمع الذى لا يحصي ولا يعد من نفس واحدة قادر جل جلاله أن ينفرد بإيجاد كل الخلق أنواعا وأشخاصا ، وصفاتا وأفعالا ، وهو الواحد الأحد والذات المنزهة عن الكم والكيف والتركيب وليس كمثله شئ وفى ذلك أكمل مشاهد التوحيد مصداقا لقوله تعالى : **"وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ"**[1] ففي هذه التبصرة شفاء من أمراض النفوس الإبليسية الانتقامية ، وقهر للشياطين الذين هم فى صور الأناسي إذا تحققوا أن العالم الإنساني كله من نفس واحدة ، ورأي كل شخص أنه يحب لنفسه الخير ويكره لها الشر لعرف أن الناس جميعا أخوة يجب عليه أن يحب لهم ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه ، وبناء على هذا المفهوم يكون كل إنسان يكره إنسان آخر ليس من بني الإنسان بل هو شيطان فى صورة إنسان ، حفظنا الله من شرورهم ، ومن التشبه بهم.

"لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا" أي ليأنس بها ويتعاون معها فى جلب المنافع ودفع المضار ، لأن الإنسان أحوج الأنواع الحية إلى المساعد والمعين فإن كل إنسان يحتاج إلى العشرات من الناس ليسدوا ضرورياته ، فضلا عن كمالياته التى تحتاج إلى تعاون الآلاف من بني جنسه ، **"فَلَمَّا تَغَشَّاهَا"** أي لامسها وجامعها لأن "تغشاها" كناية الجماع المعروف بين الزوج وزوجه **"حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا"** أي حملت ماء زوجها فلم تجد فيه غضاضة ولا ألما **"فَمَرَّتْ بِهِ"** أي مشت وقضت أعمالها فرحة مسرورة **"فَلَمَّا أَثْقَلَتْ"** أي نما الجنين فى بطنها وثقل عليها أن تعمل عملا غير حمله . **"دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ"** وما دعاهما إلى هذا الدعاء والنذر إلا تلك المحبة الرحيمة بالأبناء والتى أودعها الله قلوب الآباء . أسأل الله تعالى أن يجعلنى وأولادي من الأبرار بوالديهم.

قوله تعالى : **"فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ"**(190).

أي فلما رزقهما الله بولد صالح فى حمله وفي وضعه وفى تربيته **"جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا"** أي أدعي كل من الرجل والمرأة أن الفضل في صلاح الولد وحسن خلقه وجمال خلقته يعود إليه وحده

([1]) سورة الذاريات آية : 21.

دون الطرف الآخر ن وقد نسى كل منهما دعاءهما إلى ربهما ، وإذا رزقهما الله بمولود لهما غير ما يريدان ألقي كل منهما اللوم على الآخر ، والشرك بالله تعالى أمر وارد فى كلا الحالتين ، نعوذ بالله تعالى من عدم الرضي عن الله سبحانه.

قوله تعالى **"فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ"** يراد بها معاصروا رسول اللهε من اليهود والنصارى وكفار قريش لأن قوله "عما يشركون" بواو الجمع يقتضي انفصالها عن الآية السابقة التى كان الخبر فيها بضمير الاثنين إشارة إلى الرجل والمرأة ويجوز أن يكون المراد الكثرة من الأزواج والزوجات الذين ينسون فضل الله فيما آتاهما وينسبون محاسن وفضائل أبناءهم إلى الأباء والأمهات والأعمام والخالات والأجداد والجدات ، أو كل ظاهر بارز في الأسر والعائلات ، نعوذ بالله تعالى من شرك الغافلين ، ونسأله سبحانه التوفيق إلى شكر الذاكرين فضل رب العالمين.

قوله تعالى : **"أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ"**(191).

هذه الآية الشريفة حجة قاصمة لظهور المشركين ،وهى من دلائل التوحيد الجلية التى جللت أهل الشرك بالخزي والعار ، وجردتهم من مسحة العقل ، ولكن قتل الإنسان ما أكفره ، تنزع نفسه العنادية إلى ما يدعوه إليه هواه ، فيأبي أن يقبل حجج الله وبيناته وتأويل هذه الآية أن "الهمزة" الإنكاري و "ما" اسم موصول و "ويخلق" صلتها و "شيئا" مفعول ، وخلق الأشياء الذى هو برهان على الوهة الخالق هو إيجاد أشياء من العدم وهو خاص بالله تعالى ، أما الخلق بمعني تنويع الحقائق كجعل القطن ثوبا وجعل الخشب بابا وجعل الحديد سريرا فهذا خلق بالنسبة للناس ويسمونه خلقا تساهلا ، فثبت أن قوله "مالا يخلق شيئا" أي يخلق شيئا كخلق الله الأشياء من العدم فصح أن تكون الآية حجة قاصمة للظهور كاشفة لحقيقة المعني.

"وَهُمْ يُخْلَقُونَ" "الواو" هنا للحال "وهم" كناية عن كل ما أتخذه الكفار شريكا لله ، فإنهم اتخذوا الملائكة شركاء لله ، واتخذوا المسيح وعذيرا شريكين لله ن وأدعي فرعون الربوبية والألوهية ، فكانت الآية الأولي خبرا من الله تعالى عن الأوثان والأصنام ، والحال مبينا لكل من اتخذوه المشركون شريكا لله من الأنس والجن والملائكة ، فصح أن يقول سبحانه "وهم يخلقون" ولا لزوم للتكلف فى التأويل.

ولما كان خلق الأشياء من العدم خاصا بالله تعالى لا يتعداه إلى غيره ، وكان أمرا معلوما عقلا ، أنزل الله الآية ليخزيهم ويذلهم ويجردهم من أدني معاني البشرية بل وأدي معاني البهيمية ، وكيف لا وكل كافر أو منافق يعلم علما يقينا أن الذى خلق السموات والأرض وما فيهما هو الله الخلاق العظيم ، يعلمون حق العلم أن كل ما فيهما ومن فيهما "مخلوقون مقهورون" قال تعالى **"إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا"**[1] . وأعجب من هذا أن القوم يخلقون آلهتهم بأيديهم فينحتوها أن كانت من حجر ، ويصنعوها أن كانت من خشب ومع هذا يعتقدون أنها شريكة الله تعالى.

قوله تعالى : **"وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ"**(192).

هذه الآية حجة بعد حجة لأن المشركين كلما حزيهم الخطب وأبتهلوا لأصنامهم لا يجدون منها إلا الخذلان والخسران ، ولو أن واحدا كسر الأصنام بالفأس كما فعل الخليل عليه السلام لما قدرت أن تدافع عن نفسها ، كل ذلك يعلمه أهل الشرك ولكن قل الإنسان ما أكفره.

([1]) سورة مريم آية : 93 – 94 – 95 .

ومعنـي هـذه الآيـة أن المشـركين إذا أصـابتهم المصـائب وطلبـوا مـن الأصـنام نصـرة ودفعـا للشـر لا ينتفعون منهم بشئ لأنهم أحجار وأخشاب لا ينصرون أحدا **"وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ"** ، لأن الأصنام مصـنوعة مـن الحجـارة أو مـن النبـات الـذى لا يحـس ولا يتحـرك ولا يقـوى علـى دفـع مـن أراد أن يحطمها، فكيف يعبدوها كأنها آلهة وهى من صنع أيديهم ، إلا ساء ما يفعلون.

قوله تعالى : **"وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ"**(193).
هذه الآية الشريفة برهان على إنفراد الله تعالى بالهداية والأضلال ، ودليل على كمال وحدانيته جل جلاله ، وحتمية نفاذ قضائه وقدره على عباده ، وإنما مر رسولهε ليبلغ الناس أمر الله ونهيه ليقيم الحجة على من سجل عليهم الضلال والكفر حتى إذا أنتقم منهم يوم القيامة كان ذلك عدلا منه جل جلاله ، ومعنى هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يخبر حبيبه محمداε بذلك ليؤنسه ويسليه عما ألم به من الحزن على عناد قومه وتكذيبهم لأيات الله ، وليعلم أن القدر سجل عليهم الكفر ، وكانε حريص على هداية قومه رءوف رحيم بهم حتى تكاد نفسه الشريفة تذهب عليهم حسرات ، فأخبره الله تعالى أن دعاءه أياهم إلى الهدي بأسلوب الحكمة والموعظة الحسنة لا يؤثر على طباعهم الخبيثة ولا على نفوسهم الأمارة بالسوء تأثيرا يجعلهم يتبعوه ، فادعهم بالبلاغ فما على الرسول إلا البلاغ البين . وهو هداية البيان ، أما هداية الإحسان فهى من الله تعالى يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو أعلم بخلقه.
"سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ" أي أستوي عند عبده تلك الالهة التى هى من الجمادات أو النباتات أو الحيوانات دعاءكم أياهم إلى الهدي أو صمتكم عن دعوتهم . لأنهم عبدوا آلهة من صنع أيديهم فاقدة للحياة والحس والحركة ، ولا يعبد ما لا ينفع ولا يضر ولا يحس ولا يتحرك إلا أعمي البصر فاقد العقل والإرادة . وفى هذه الآية حكم من الله تعالى على أن عبدة الأوثان أضل من البهائم . وأضر بأنفسهم من النار المسعرة والوحوش الكاسرة حفظنا الله تعالى من سوء القضاء.
قولـه تعـالى : **"إِنَّ الَّـذِينَ تَـدْعُونَ مِـنْ دُونِ اللَّهِ عِبَـادٌ أَمْثَـالُكُمْ فَـادْعُوهُمْ فَلْيَسْـتَجِيبُوا لَكُـمْ إِنْ كُنْـتُمْ صَادِقِينَ"**(194).
هذه الآية الشريفة خطاب من الله تعالى إلى عبدة الملائكة والجن والأصنام والأوثان ، أو غيرهم من الحيوانات وملوك الأرض من الأناسي ومعنـي الآيـة أن الله تعالى يقهر المشركين الذين اتخذوا آلهة تعبد من دون الله مفتتحا الآية بحرف التوكيد لتقوية الخبر والاسم الموصول ليأتي بصلته تشنيعا عليهم و **"تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ"** أي تخصونهم بالعبادة من دون الله تعالى جهلا وكفرا و "عباد" خبر "أن" و "أمثالكم" أي نظراؤكم لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، فكيف يملكون لكم إغاثة أو إجابة مع عجزهم عن جلب الخير لأنفسهم ودفع الضر عنهم ، ، وبرهان ذلك ما بينه الله تعالى حجة عليهم بقوله سبحانه وتعالى . "فادعوهم" أي فسألوهم حاجاتكم من خير ونصرة وتأييد **"فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ"** "اللام" لأم الأمر يستجيبوا لكم مجزوم بلام الأمر . والمعني أن لم تقبلوا ما جاءكم به خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام من عند الله تعالى وأبيتم إلا أن تعبدوا أمثالكم من المخلوقين المقهورين "فادعوهم" فيما لابد لكم منه **"فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"** فيما تدعونه من ألوهة تلك المعبودات التى تعبدونها حتى يظهر لكم عجز معبوداتكم عن الاستجابة لكم ، وبعد الحجة تؤمنون

بالله تعالى وبرسولهε ، وقد قامت الحجة ووضحت المحجة ولكن **"مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا"**[1].

وقد جاء الحق وزهق الباطل فنصر الله رسوله وأظهر دينه سبحانه على الدين كله وحطمت الأصنام والأوثان وأزل الله المشركين وأخزاهم.

قوله تعالى : **"أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ"**(195).

نفي الله تعالى بالاستفهام الإنكاري عن الأصنام والأوثان ما تفضل به على بني الإنسان والحيوانات من الأرجل التى يمشي بها الحيوان والأيدي التى يستعملها الإنسان فى جلب النفع ودفع الضر **"أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا"** فيهتدون إلى طرق جلب قوتهم ودفع عدوهم والتحصن من الأخطار ، **"بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا"** النداء والدعاء وما ينتفعون به من تحصيل الفنون والصناعات والعلوم النافعة ، وبما أن جواب هذه الأسئلة هو النفي كانت آلهتهم التى يعبدونها أدني من البهائم قدرا وبالعقل كيف يتخذوا آلهة هى دون البهائم والإنسان أفضل من البهائم فهل يليق بالفاضل أن يعبد السافل ن اللهم أنا نعوذ بك من الهوى الذى هو أخو العمي.

"قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنْظِرُونِ" . هذه الآية أمر من الله تعالى لنبيه محمدε ليقول لأهل الكفر بالله ادعوا شركاءكم الذين اتخذتموهم من دون الله تعالى **"ثُمَّ كِيدُونِ"** . أي اجتمعوا لكيدي فإنكم أنتم وآلهتكم لا تنفعون أنفسكم ولا تضرونها لما أنتم عليه من الباطل . **"فَلَا تُنْظِرُونِ"** أي لا تؤجلون كيدى بل أسرعوا بتنفيذ ما تقدرون عليه ، ثم أخذ سبحانه وتعالى يخبر حبيبه محمداε بأن يقول لهم ما به عزه وتأييده ، وخزيهم بقوله فى الآية التالية.

قوله تعالى : **"إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ"**(196).

أي أن الله وليى يقولاني ويؤيدني وينصرني عليكم ويظهر دينه على كل دين بقدرته العجيبة وقوته القاهرة ، ومن يكن الله وليه يهده صراطه المستقيم ويؤيده بروح منه ويهلك أعداءه **"الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ"** أي نزل القرآن من عده لدعوتكم إلى الحق فالكتاب الذى أدعوكم به إليه هو الكتاب المنزل من لديه سبحانه وتعالى ، فأنا عبده ورسوله إليكم والقرآن كتابه وقد وعد فى كتابه من أسلم بالحسنيين وتوعد من كفر بالخلود في نار جهنم **"وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ"** الذين وفقهم الله للإسلام وللعمل بالقرآن.

قوله تعالى : **"وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ"**(197).

هذه الآية الشريفة مع أنها حجة قاصمة لظهور المشركين مخزية لهم محقرة لألهتهم كما تقدم من الآيات فأنها أيضا تشنيع عليهم وتحديا لهم لتقوم الحجة على عجزهم وكذبهم وذل آلهتهم ، لأن الله تعالى يعيرهم جل جلاله بذل آلهتهم وعجزهم ، فإن لم يكونوا كذلك فليقيموا الحجة على أن لهم نفعا أو ضرا ، لأنه سبحانه نفي عنهم استطاعة نصرهم بل ونفي عنهم استطاعة نصر أنفسهم ، وفى ذلك من الأغراء بهم أن يختبروا آلهتهم حتى يتحققوا من عجزها فيرجعون إلى الله ويسلموا له ، ولكن من يضلل الله فلا هادي له.

قوله تعالى : **"وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ"**(198).

([1]) سورة الكهف آية : 17.

هذه الآية خطاب من الله تعالى للمؤمنين ، ومعناها وأن تدعوا أيها المؤمنون هؤلاء المشركين "**إِلَى الْهُدَى**" لا يسمعوكم لما فى آذانهم من الوقر ، فيسمعون كلامكم بآذان صماء عن الحق ، وقلوب مقفلة عن قبول حجج الله تعالى وبيناته ، لأن الله لم يشأ أن يهديهم ، وقوله ، "**إِلَى الْهُدَى**" أي إلى ما يهديهم به الله تعالى صراطه المستقيم وسبيله القويم ، فالهدي من الرسل وورثتهم هو البيان ومن الله تعالى هو الإحسان بالتوفيق واليقين.

"**وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ**" . وفى قوله تعالى "وتراهم" سر خفي ، وهو أن الدعوة كانت جماعية من رسول الله وأصحابه كأبي بكر ومن معه من خاصة الصحابة ، وهنا أفرد الله رسولهε بالخطاب دون غيره لأن الذى يري سر القدر السابق فى أعداء الله المشركين ، هو رسول الله فقط ، وأما الصحابة الذين ذكرهم الله فى قوله تعالى "وأن تدعوهم" فإنهم عند دعوتهم المشركين يطمعون أن يؤمنوا ولكن رسول اللهε كان يدعوهم وهو يعلم من الله أنهم لا يؤمنون ، ولذلك يقول الله تعالى "وترهم ينظرون إليك" أن يواجهونك بأبصار محدقة إليك وهم في الحقيقة "لا يبصرون" أي لا يقبلون منك ولا يعقلون عن الله ما أنزله عليك.

وأن أولنا الآية بأن المراد في الدعوة هى "الأصنام" أي وأن تدعوا الأصنام إلى الهدي لا يسمعوا لأنهم أحجار أو خشب مسندة لا تسمع ولا تعقل ومن كانت هذه صفتهم كيف يعبدهم المشركين من دون الله ، ويكون معنى "**وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ**" أي والحال أنهم لا يبصرون لأن الأصنام جعل لها المشركون أعينا شاخصة إذا رآها الرائي ظن أن لها أعينا تبصر لدقة الصنعة وقوله تعالى . "ينظرون إليك" جريا علي لغة العرب ، لأن العربي إذا واجه شيئا مثل الدار أو غيرها قال نظرت إلى الدار والجبل والبحر أي قربت منى قرب الناظر إلى والقرآن أنزله الله على لغة العرب واصطلاحاتهم ، وتكون الآية للتشنيع والتقريع لقوم يعبدون أخشابا وأحجارا لا تسمع ولا تبصر ، وهى حجة على ان القوم انحطوا عن رتبة البهائم إلى ربتة الشياطين المعاندين.

والتأويل الأول تأويل الحسن رضى الله عنه ، والتأويل الثاني يقول به أكثر المفسرين إلا أن ما بينه التأويل الأول يجعله أقرب إلى العقل والشرع.

قوله تعالى : "**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**"(199).

بعد أن بين الله تعالى ما بين من صفات المشركين الذين يعبدون أحجارا أو أفلاكا أو أخشابا صنعوها بأيديهم ، وبين ما هم عليه من العناد والتعصب لمذاهبهم الباطلة وآرائهم المضلة وتقليدهم لآبائهم الجاهلين ، أمر حبيبه محمدε بقوله "**خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**" أي خذ العفو من أخلاق الناس تأليفا لهم حتى تقوم الحجة البالغة ،لأن الدعوة إلى الله تعلى يجب أن تكون جامعة لأنواع الحسنة والموعظة ، مانعة لكل ما ينفر الناس حتى ولو كانوا من أهل العناد وقيل أن معني خذ العفو مقصود به الزائد من أموال المؤمنين ، والخطاب موجه إليهم "وأمر بالعرف" أي بالمعروف لله وللعقول السليمة من الهوى وهو قول "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وما والاها من العبادة الحقة والأخلاق الجميلة والمعاملة الحسنة . "وأعرض عن الجاهلين" أترك جدالهم ومناقشتهم إلا بالتي هى أحسن ، وهذه الآية مرتبطة بما قبلها وهى قوله تعالى "**وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا**" فأمره الله تعالى أن يأخذ العفو ويأمر بالعرف ويعرض عن الجاهلين.

ولما أنزل الله تلك الآية قال رسول اللهε فى نفسه وماذا أفعل فيما يعترينى من الغضب لله تعالى ، إذا تجاوز المنكر حدود المنطق والعقل مما يوجب غضب الحليم ، فأنزل الله تعالى الآية التالية:

قوله تعالى : "**وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**"(200).
"والنزغ" هو عمل شياطين الأنس من الإنكار والعناد والاستهزاء بكلام الله تعالى مما يثير تأثرة الغضب لله ولدينه ، والنزغ من "الشيطان" هنا هو شيطان الأنس لا شيطان الجن لأن شيطان الجن ليس له سلطان على أو يوسوس أو ينزغ أو ينخس رسول اللهε لكمال عصمته من الله تعالى وحفظ قلبه المحمدي من أن تلم به لمسة شيطان من الجن ، وأن فسر ذلك بعض المفسرون أن الشيطان كان يوسوس لهε فهو تسامح وأخذ بظاهر العبارة بقدر ما فهموه لا بقدر الحقيقة ونفس الأمر ، ولو أنا فسرنا "ينزغنك" بوسوسة الشيطان ونزغه ونخسه كان ذلك قدحا فى عصمتهε والأدب يجب أن يراعي فيه جانبه صلوات الله وسلام عليه.
وتأويل الآية أن شيطان الأنس مثل أبي لهب وأبي جهل وأمية بن خلف وعقبة بن معيط وغيرهم ممن هم شر من شياطين الجن هم الذين ينزغون رسول اللهε ويثيرونه بالإنكار والعناد والأذية وتسليط السفهاء عليه حتى كان يحصل له الحزن والغم الشديد لدرجة أن همε أن يدعو عليهم ، وبالفعل دعا عليهم فى قنوت الصبح مرارا حتى نهاه الله عن ذلك بقوله تعالى "ليس لك من الأمر شئ" وفى أول الآية السابقة "**خُذِ الْعَفْوَ**" وفى أخرها في قوله "**وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ**" وأن كانت قد نسخت بآية القتال وبفرض الزكاة وفى وسطها بمحكم قوله تعالى "**وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ**".
قوله تعالى "**فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ**" أي فالجأ إلى الله مستعيذا به ، وقد تقدم تفسير الاستعاذة فى سورة الفاتحة عند تفسير قوله تعالى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ومن هذه الآية نأخذ أن المسلم إذا أغضبه غيره وخشى على نفسه الوقوع في معصية الله يجب عليه أن يقول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم عملا بأمر الله تعالى لنبيهε وفى قوله تعالى فى آخر الآية "**إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**" أي يسمع أقوال المشركين لك ويسمع كلام أنفسهم وهممهم ولممهم ونواياهم السيئة "عليم" أي يعلم أحوالهم وقصودهم فيدفعهم عنك ويوقعهم في المهالك التى يستحقونها بعنادهم لك.
قوله تعالى : "**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**"(201).
أي أن أهل الإيمان الذين اتقوا معاصي الله تعالى "**إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ**" فالمس من عمل شياطين الجن ، وهو نوع من الوسوسة ، أما النزغ فعمل شياطين الأنس بالأذية والإثارة ، وقد قرء "طيف من الشيطان" بكسر الياء وفي قراءة "طيف من الشيطان" بالتشديد ، وفى هذه الآية بين لأهل التقوى من المؤمنين بعد أن يبين الله تعالى ما لرسولهε من الواجب عليه عند إثارة المشركين لغضبه ، بين للمؤمنين الدواء الشافي لمرض النفوس عند لمسة شيطان الجن أو شيطان الأنس ، لأن الله تعالى لم يعصم المؤمنين من وسوسة شيطان الجن كما عصم حبيبه ومصطفاهε فيكون قوله تعالى "**إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا**" أي من شيطان الجن والأنس قالε "ما من أحد منكم إلا وله قرين من الشياطين وقرين من الملائكة" فقال الصحابة "وأنت يا رسول الله" قال "وأنا إلا أن الله أعانني على شيطاني فسلم" . وفى رواية فأسلم . ويكون معني "فسلم" بفتح الميم أي سلم لي الشيطان فلا يأمرني إلا بخير ، وعلى الرواية الثانية "فاسلم منه أنا" . وكان أمر الله لهε أما دواؤنا نحن الذى ركبه الله لنا وأمرنا أن نتعاطاه فهو قوله تعالى "تذكروا" أي تذكروا عقوبة الله تعالى لمن أطاع وسوسة الشيطان ، وإحسانه يوم القيامة بالنعيم المقيم فى جوار رب العالمين لمن أنتصر على مسه وخالف وسوسته.

"فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ" وإذا هنا للمفاجأة كما تقول "خرجت فإذا الشمس" أي خرجت ففاجأتني الشمس طالعة . فكذلك تذكروا ففاجأتهم الحقائق فأبصروها وهى الحد فى الدنيا والنار في الآخرة عقوبة عادلة ، والسلامة في الدنيا والرضوان الأكبر فى الآخرة مثوبة من الله تعالى ، لمن تركوا ما يدع إليه الطائف الشيطاني وأقبلوا على الله فارين إليه به ، "والطيف" هو ما يلم بالقلب من وارد الشهوات وخاطر السوء الذى يثير الغضب والأحقاد ويدعو الإنسان إلى ارتكاب المعاصي وذلك بخلاف "النزغ" فإنه أقل من الطيف بكثير ، وفى هذه الآية دليل على أن المؤمن التقي البصير أقرب إلى الله من المؤمن الذى لا تقوى عنده ولا بصيرة له ، وفى الآية حث للمؤمنين أن يديم المجاهدة وأن يحافظ على السنة فى الأقوال والأعمال ، حتى ولو شهد من الغيب مشاهد لم تؤيدها السنة ضرب بها عرض الحائط ، لأن الشيطان عدو لنا شغوف بإهلاكنا بسبب عداوته القديمة لأبينا آدم عليه السلام .

قوله تعالى : **"وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ"**(202).

بعد أن بين سبحانه دواء المؤمنين من لمسة الشيطان بقوله "تذكروا" بين سوء أعمال أهل الشرك بالله التى تمدهم بها شياطين الجن بقوله تعالى **"وَإِخْوَانُهُمْ"** أي وأخوان المشركين من شياطين الجن يمدونهم فى غيهم وضلالهم بما يسعر نار القطيعة بين العبد وربه والبعد عنه جل جلاله فيزدادون ضلالا وغيا "ومد" يمد بالشر "وأمد" يمد بالخير وأن كان بعض القراء قرآها "يمد" فهى من باب "فبشرهم بعذاب إليهم" على صحة الرواية "ثم لا يقصرون" أي ثم بعد إقامة الحجة ووضوح المحجة بالمعجزات الباهرات وبآيات الله البينات التى جاء بها رسول اللهε "ولا يقصرون" أي لا يتساهلون بل يزدادون طغيانا وعتوا وعنادا لله ورسوله وللمؤمنين ، بل ولكل صالح مصلح ، أما أهل التقوى فأنهم بمجرد حدوث لمسة الشيطان لهم يلهمهم الملك الموكل بهم ما به يتذكرون جمال الله وجلاله وأيامه فينيبون إلى ربهم مقبلين عليه سبحانه تائبين إليه من كل ما يوجب غضبه سبحانه وفى هذه الآية خبر من الله تعالى عن نزوغ نفوس المشركين إلى عناد رسول اللهε ، وتأويلها أن أعداء الله المشركين كانوا يسألون رسول اللهε أن يظهر لهم آيات ، والله جل جلاله إنما أرسل رسوله محمدε بالقرآن المجيد الذى هو دعوة وحجة ، والحكمة فى ذلك أنه ختم الرسل فلا نبي بعده فتفضل الله على العالم بأن بعثة بالحكمة العالية الماثلة أمام العقول والأرواح وهو القرآن المجيد ، فإنه هو الدعوة وهو الحجة ،وكم أظهر على أيدي رسله السابقين من أحداث عظيمة تزعج القلوب عند ظهورها من فلق البحر بالعصا وإحياء الموتي ومن خسف الأرض بمن فيها ومن مسخ بعض الأمم قردة وخنازير ، ومع جلالة الآية ووضوحها للعقل والحس ولكنها ما كادت تغيب عن الحس إلا وخفيت عن العقل ولم تنتفع بها الأمم ، فإن اليهود الذين فلق لهم موسى البحر قبل أن تجف أقدامهم من الماء قالوا أجعل لنا آلها كما لهم آلهة.

قوله تعالى : **"وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ"**(203).

لأن الآية التي أظهرها موسى لم تمكث ماثلة أمام العقول إلا لحظات وقت إظهارها ، ولذلك فإن الله تعالى لم يشأ أن يجعل لرسوله وخاتم أنبيائهε معجزة إلا القرآن العظيم الجامع كل خير ، المانع كل شر فى الدنيا والآخرة ، ومع هذا فإن المشركين كانوا يعرضون لرسول اللهε كما أخبرنا الله عنهم بقوله **"لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا"** أي لولا اختلقتها كما أختلقت الآيات الأخرى تنديدا بهε ، وجائز أن يكون معناها لولا اقترحتها على ربك ليظهرها لنا أي هلا اجتبيتها ، فإن "لولا" هنا بمعنى هلا **"قُلْ إِنَّمَا**

أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي" . أي قل يا محمد لقومك الذين يطلبون منك الآيات جهلا منهم بقدرك وقدري لأني بعثتك إليهم رسولا مبلغا عني آياتي بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الحق بإذني وسراجا منيرا ن فأنت اعلم الناس بى وأكملهم أدبا في وأخشاهم قلبا وأخضعهم جسما ، ومن أقمته فى هذا المقام لزم الأدب معى فلا يغلبه هواه فيعمل عملا لم أمره به ، وها أنا أعلن ذلك بأمري له لتعلموا قدره . وإذا كان أحب الخلق إلى وأعلمهم بي لا يحفظ الأدب معي فمن الذى يتأدب لي ، وهو الإمام الدال لكم على ، فيلزم أن تكون دلالته وإشارته جاذبة لقلوبكم إلى ما أحبه وأرضاه منكم لتفوزوا عندي بالنعيم باتباعكم له لأنه متبع أمري ، وقد جملته بما أحبه منه ومنكم ودليل ذلك أن أنزلت عليه أمري **"قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي"** أن قل يا محمد لقومك أني لا أقول ولا أعمل إلا ما يوحى إلى من ربي الذي خلقني و أقامني رسولا إليكم وقد تقدم الكلام على الوحي.

"هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" الإشارة هنا للقرآن الكريم "وبصائر" أي حقائق جلية للعقول السليمة "والبصائر" جمع بصيرة والمراد بها محل الأقوال والأعمال التى يحبها الله تعالى ، فذكر السبب وأراد المسبب ، لأن البصائر ما تبصر الحقائق ولكن المراد أوامر الله ونواهيه وأحكامه "وهدي" أي بيان ودلائل "ورحمة" أي إحسان من الله وفضل عظيم ولما كان المسلمون ثلاثة أقسام .

1- قسم نظر وبحث وأستدل حتى وصل إلى عين اليقين وهم أهل العلم الناظرون فى آيات القرآن العظيم.

2- وقسم جاهد فشاهد وهم أهل الهدي ممن وصلوا إلى حق اليقين.

3- وقسم سلم وصدق رسول الله بالتسليم الخالص من غير نظر ولا بحث فى الدلائل وهم عامة المسلمين الذين أثني الله عليهم بقوله تعالى **"الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ"**[1] وهم أهل التسليم الذين بشرهم الله بقوله أولئك على هدي من ربهم وأولئك هم المفلحون" "وهؤلاء" لهم القرآن رحمة ، فالقرآن بالنسبة لهم بصائر وهدي ورحمة لأنهم قوم يؤمنون ، يعني أن الإيمان هو الأصل فى كل تلك الخيرات وما عداه هو الفرع مثل اليقين والشهود والولاية والجذبة وغيرها ، فلا تستعظم على المؤمن أكبر مقام ،فإن الذى أعطاه الإيمان أكرمه الإكرام ، قالε : "يا أبا بكر لا تحقرن أحدا من المسلمين – أي المسلمين لله ولرسولهε - فأن صغير المسلمين عند الله عظيم".

قوله تعالى : **"وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ"**(204).

اختلف العلماء فى تأويل هذه الآية فقال بعض السلف الصالح إذا قرئ القرآن فى أي مكان وفى أي زمان وجب على الجالسين أن يستمعوا له فلا يتكلموا عند قراءته ، وقال بعضهم أن الآية يتحقق العمل بها عند الصلاة.

"وَأَنْصِتُوا" معلوم أن السماع انصات فما فائدة قوله تعالى "وأنصتوا" تأويلها أن الله تعالى يقول من كان قريبا من الإمام وجب عليه أن يستمع ، ومن كان بعيدا عنه لا يسمع وجب عليه الإنصات لئلا يشغل قلوب المصلين "لعلكم ترحمون "لعل هنا بمعني اللام أي لتنالوا رحمة الله التى يتفضل بها على المصلين خصوصا فى صلاة الجماعة ، فإن المتأدب بآداب الله بينها فى القرآن يفوز بقسط عظيم من الرحمة التى تفاض منه على صفوف المسلمين.

([1]) سورة البقرة آية : 3.

قوله تعالى : **"وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ"**(205).

بين لنا هذه الآية رسول اللهε بقوله في الحديث القدسي عن الله تعالى : "أنا عند من عبدني وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني فى نفسه ذكرته فى نفسي وأن ذكرني في ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وأن تقرب إلى شبرا اتقربت إليه ذراعا ، وأن تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا وأن أتاني يمشي أتيته هرولة" أو كما قالε ، فبين لنا رسول اللهε أن المؤمن يذكر الله فى نفسه فيذكره الله فى نفسه ، وأنه يذكر الله فى مجتمع من الناس فيذكره الله فى مجمع من الملائكة والأرواح العالية ، والذكر فى النفس يكون بالتفكر فى ألاء الله ثم ينتقل إلى الفكر فى آيات الله ثم ينتقل إلى الفكر فى عظمة الله وكبريائة وجلاله وجماله ، وأما الذكر فى الملأ فهو أن يذكر الله فى الصلاة جماعة وفى حلق الذكر وفى مجالس العلم وفى مجتمع الإخوان . وحضور الخلان "وأذكر بك فى نفسك" أن تذكر حتى تستحضر فتتمثل فيتفضل عليك بالمثول فى حضرته حتى تعبد الله كأنك تراه **"تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ"** "التضرع" هو التملق في الدعاء بصوت خاشع ذليل منكسر، وهذا مقام ذكر اللسان عن باعث القلب ليفوز بالمواهب اللدنية والعطايا الإحسانية بدليل قوله تعالى : **"تَضَرُّعًا وَخِيفَةً"** أي وخشية ورهبة خوفا مما يلحظه من عظمة وكبرياء الله تعالى وهو ذكر القلوب ، ويسمي عند العارفين بالسياحة الروحانية فى ملكوت الله تعالى.

"وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ" وهو ذكر أله الوصول الجامعيين بين عمل القلوب والجوارح ، إلا أن الله أمرنا أن نتحفظ فى هذا المقام من الجهر خشية على قلوبنا من تسرب الشيطان الرجيم فيشغلنا بالرياء والسمعة والشهرة أو الطمع فى غير مطمع فأمرنا أن يكون الذكر فى هذا المقام بالقلب واللسان ، ملاحظين أن يكون الذكر باللسان دون الجهر من القول أى لا نسمع إلا أنفسنا ، فيكون ذكرنا أعلي من السر ودون الجهر حفظا للقلوب من شوب العلل والأغراض.

"بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ" "الغدو" وهو من طلوع الفجر الصادق إلى شروق الشمس "والأًصال" ما بين العصر والمغرب . ولما كان الغدو وقت الحياة من الموت القصير الذي هو النوم ، ثم يتفكر فى من رد عليه حياته وسمعه وبصره وعقله ومنحه الحس والحركة والإرادة بعد فقدهم ، ولا حول له ولا لغيره من الخلق أجمعين أن يعيد له أو يعيدوا هم لأنفسهم تلك الصفات التى يتفضل بها إلا الله ، ثم يفكر هل لله حاجة إليه حتى يمنحه تلك الخيرات المتمثلة فى هذه الصفات فيظهر له أن الله تفضل بها لأنه رب كريم غني عن العالمين ، فيشهد بقلبه جمال ربه ، ويشهد بلسانه أنه لا آله له إلا الله فيمنحه الله المزيد من فضله بن يعلمه ما لم يكن يعلم ، ويشهده بدائع أبداعه هذا الكون فيزداد إيمانا على إيمانه وهذا هو السر فى قوله "بالغدو" لأن من قام من نومه غافلا عن ذكر ربه جاهلا بقدر ما تفضل الله به عليه من النعم كان من الغافلين الخاسرين يوم الدين.

"والآصال" الآصال هى ما بين العصر والمغرب ، وهى وقت الغفلة الكبرى ، حيث يشتغل الناس بتمام عملهم فى النهار ، فالفلاح يجمع ماشيته ليرجع إلى بيته ، والتاجر يرتب تجارته ليغلق عليها حانوته ، والصانع يجمع آلاته ويعيدها إلى أماكنها ، فكل إنسان يشغله إنهاء عمله ليتفرغ بالتوجه إلى بيته فتكون الغفلة ، ثم أن هناك حكمة أخرى وهي أن الإنسان يستعد للموت القصير وهو النوم فيتذكر أعماله فى النهار بما أعانه الله به من اليقظة والصحة والعقل الذى فكر به فى عمله طول نهاره ، والنعمة التى أنعم الله بها عليه بقوته وقوت من يعولهم ، ويتذكر بعد ذلك أن يموت بالنوم فيفكر في تلك التغيرات الكثيرة فى يوم واحد ، وأنه لولا إمداد الله له لهلك ، فيذكر الله بشكره على عميم نعمه ،

ويستعد للدخول فى موتته الصغرى طاهرا من الغفلة بذكر ربه فى نفسه متضرعا إليه خائفا من جلاله طامعا فى جماله ، فلو مات الموتة الكبرى لمات على أكمل إيمان.
"وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ" هذه الآية وأن كان خاصة بالرسول إلا أن المراد بها نحن ، لأن الله يخاطب حبيبه ويريدنا بالخطاب وقد يخبر عنا والمراد رسول اللهε فيخاطب رسول الله ويريدنا كما فى هذه الآية ، ويخبر عنا والمراد به رسول اللهε كما قال تعالى : "أم يحسدون الناس علي ما آتاهم من فضله" والمراد رسول اللهε "والغفلة" تقدم الكلام عليها ، ونزيدك بأن من أنعم الله تعالى عليه بنعمة الإيجاد والإمداد ولم يذكر المنعم فى نعمه كان من الغافلين عن الله الكافرين بنعمه الجاحدين فضله سبحانه.
قوله تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ"**(206).
بعد أن بين الله تعالى أن القرآن بصائر وهدي ورحمة للمؤمنين ، ثم بين آداب سماع القرآن كما قدمنا ، وسبب بيان آداب القرآن أن الصحابة رضوان الله عنهم كانوا يتكلمون فى الصلاة ، فيسلم بعضهم على بعض ويسأل بعضهم بعضا عن حوائجهم ، فأمرهم الله بالاستماع إلى القرآن فى الصلاة والإنصات إليه فى صمت ، ثم أمرنا سبحانه بالذكر غدوة وأصيلا ، وذلك بأن نتفكر فى آيات القرآن ونتدبرها لتلوح لنا أنوارها وتنكشف أسرارها ، ثم أردف ذلك ببيان أن الذين عنده سبحانه "لا يستكبرون عن عبادته" وهم عالم الروحانيات العالية من أعلي علين وحملة العرش العظيم ، ومن دونهم من عمار السموات ، ومن لموكلين بحفظ بني الإنسان وبالأمطار والهواء في الأرض ن وبانبات الذرع وأدرار الضرع فهذه الأرواح العالية لا تتكبر عن عبادة الله تعالى مع أنهم أرواح نورانية آمنون على أنفسهم من ملابسة المعاصي ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وآمنون أيضا من غضب الله تعالى.
وأما بنو الإنسان المخلوقون من أركان الوجود الأربعة المتسلطة عليهم دواعي الحظوظ والأهواء القاهرة وقد أعلمهم الله بوعيده لمن خالف أمره بعد أن تفضل عليهم فصاغهم بيديه ، وأسجد لهم ملائكته ، وسخر لهم كل شئ فى ملكه وملكوته ، وكيف يتساهلون أو يتهاونون أو يغفلون عن قدرهم ، فيتكبرون عن عبادته سبحانه "والكبر" هو ترك العمل بالحق بعد وضوحه ، ومخالفة الأمر بعد صريحه ، وارتكاب المنهي عنه بعد الوعيد ، وفى قوله "عند ربك" معلوم أن العندية والمعية واللدنية كلها ألفاظ تفيد المكاني ، والله تنزه وتعالى عن المكان والزمان "فالعندية" هنا بمعني القرب التشريعي ، يعني أن الله تعالى شرفهم فجعلهم بما هم عليه من المسارعة إلى محاب الله ومراضية كأنهم فى قرب عنده ن ومعية الله لأهل الإيمان فوق عندية الملائكة فأهل الإيمان يجاهدون حقائق راسخة فى طباعهم مجاهدة فادحة وقد فضل الله المجاهدين على الملائكة درجة . لأن الملائكة مفطورين على الطاعة والعبادة بحسب جواهرهم ، أما الإنسان فإنه بين عدوين لدودين ، بين الشيطان وهو العدو اللدود ، وبين دواعي عناصره التى هى عدوة لنفسها . فإذا هدي الله إنسانا وأقامه عاملا له جل جلاله ، كان عنده أفضل من جميع الملائكة ، بل وكانت الملائكة خدما له فى الجنة كما أخبرنا سبحانه بقوله تعالى " **وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**"[1]
"ويسبحونه" أي ينزهونه عن النقائص فلا يصفونه بما لا يليق بذاته العلية تنزه وتعالى "وله يسجدون" أي وله يصلون لأنه ذكر السجود وأراد به الصلاة أسأل الله تعالى أن يتفضل على فيغفر لى

([1]) سورة الرعد آية : 23 – 24 .

كل ما وقعت فيه من خطأ هو طبعى بحكم بشريتي ن وأن يزيدني فضلا وإحسانا فينفعني وأهل وأخواني بما وفقني إليه سبحانه ، أنه نعم الموفق والمعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سـورة الأنفـال

قوله تعالى : **"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"**(1).

سبب نزول هذه الآية الشريفة وقد نزلت فى غزوة بدر ، وهى معلومة لن جيش رسول اللهε كان ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا وكان جيش المشركين كثيرا جدا فوق الألف فارس غير أحباشهم وأتباعهم مع وفرة الزاد والراحلة ، والصحابة رضوان الله عنهم لم يكن معهم إلا العصي ليسوقوا عير قريش إلى المدينة ، فلقوا العير نجت ولقوا النفير ذات الشوكة أقبلت ، وبعد الشورى ضربوا لرسول اللهε خيمة بعيدا عن مرمي النبال ووقف الصحابة للقاء العدو الكثير ، فقال رسول اللهε لأصحابه من قتل قتيلا فله سلبه ، ومن قتل كذا في مكان كذا فله كذا ، ومن قهر عدوا فله متاعه ، فأسرع الشباب إلى ملاقات القوم وبقي الشيوخ تحت الرايات محافظة على رسول اللهε أن يميل إليه العدو ، فلما هزم الله المشركين وقتلهم كما قال سبحانه **"فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ"**(1) طلب الشباب أخذ ما وعدهم به رسول اللهε فقال لهم الشيوخ أنا كنا نحفظ الصفوف محافظة على رسول اللهε ولو أنا اسرعنا معكم لتمكن الكفار منهε ، وأنا كنا ردءا لكم حتى إذا قهركم الكفار رجعتم إلينا فنحن أولي بهذا منكم.

"والأنفال" هى الزيادة كما يقال صلاة التطوع نافلة أي الزيادة على الواجب ، فكذلك الأنفال هى زيادة تعطي لمن بلي فى لقاء العدو ، فسأل بعض الصحابة رسول اللهε عن الأنفال هي لمن حتى جاء سعد بن أبي وقاص ومعه سيف سعد أبن العاص أخذه بعد قتله ، فقال " يا رسول الله أي بليت فى العدو بلاء حسنا فأنفلني هذا السيف" ، فقال لهε "ضعه موضعه فليس لي ولا لك" فردد عليه السؤال ورد عليه الجواب ، فلما ذهب ليضعه حيث كان ، طلبهε وقال له الأن صار السيف لي فخذه لك بعد أن أنزل الله قوله تعالى **"يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ"** . فرد كل صحابي ما أخذه مما كان وعده به رسول الله ،وقسم الأنفال بنفسه عليه الصلاة والسلام لكل فارس قسطه ولكل راجل قسطه بالحق وأصلح الله ذات بين الصحابة بعد الخصومة ، وغزوه بدر قد بين الله تعالى في القرآن أسبابها وأحداثها.

ومعني هذه الآية الشريفة يسألونك يا محمد عن زيادة الغنائم لأن الله تعالى لم يحلها لغير المسلمين فهى نافلة من الله تعالى أي زيادة منه سبحانه لنا لأنها لم تحل لنبي من قبله عليه الصلاة والسلام ، والسائلون له عليه الصلاة والسلام هم من عرفت ، "والأنفال" هى الزيادة كما بين فأجاب الله تعالى عن السؤال بقوله . قل يا محمد لأصحابك "الأنفال لله والرسول" أي لله ملكا وتقديرا ولرسولهε ينفلها لمن يشاء لأنهε لا ينطق عن الهوى **"فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ"** أي أتقوا عقوبة مخالفتكم لله ولرسوله ، وأعملوا أن رسول اللهε وعدكم ، والله فسخ وعده وأحكم حكمه إصلاحا لقلوبكم وشفاء

---

(1) سورة الأنفال آية : 17.

لذات بينكم ، فإن إصلاح ذات البين يرضى الله تعالى ويرضى رسولهε ، وإرضاء الله تعالى وإرضاء رسوله خير لكم فى الدنيا والآخرة من الأنفال وغيرها.

"وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ " أي صفوا قلوبكم مما تجدونه من الغضاضة على بعضكم ، فأنكم بايعتم الله تعالى على أن تسلموا لرسول اللهε تسليما "وأطيعوا الله ورسوله أن كنتم مؤمنين" أي وأطيعوا الله فيما أمركم به أو نهاكم عنه "ورسوله" فيما يبينه لكم من أحكام الله تعالى من قسم الغنيمة وغيرها "أن كنتم مؤمنين" أي مصدقين.

قوله تعالى : **"إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ"**(2).

بعد أن حصلت الخصومة بين الشباب والشيوخ فى الغنيمة كما تقدم ، أمرهم الله تعالى بتقواه وإصلاح ذات البين مخوفا لهم بقوله تعالى "أن كنتم مؤمنين" ثم بين صفات المؤمنين فحصرها فى خمس صفات بقوله تعالى **"إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ"** أي المصدقون "الذين إذا ذكر الله على لسان النبيε أو ذكره العالم باله تعالى لأهل الإيمان "وجلت قلوبهم" وهى الصفة الأولى من صفات المؤمنين "والوجل" هو الخوف المزعج للقلوب عندما يذكر الله تعالى مبينا لأحكام أعمال لا يحبها ، أما إذا ذكر الله تعالى لبيان جماله وجلاله ومحابة ومراضية فإن القلوب لا يحصل لها الوجل ، ولكن يحصل لها الطمأنينة واللين.

قال تعالى **"اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ"**[1] فلين القلب هنا لسماع كلام الله حال تدبره وتعقل الخطاب من غير سابق سهو أو نسيان.

قوله تعالى "وجلت قلوبهم" أي خافت قلوبهم وسارعوا إلى تنفيذ أمر الله تعالى ، وتنفيذ امره هنا حسب سياق الآية هو رجوع الحكم فى غنيمة بدر إلى الله ورسوله "وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا" أي آيات القرآن المجيد أو ذكروا بآيات الله فى الآفاق أو فى أنفسهم أنكشفت لهم حجج الله تعالى ودلائل توحيده سبحانه وعلامات قدرته وحكمته "زادتهم إيمانا" والإيمان يزيد بالدلائل والحجج وزيادته وضوح الغيب المصون الذي يجذب القلوب إلى المسارعة لمحاب الله ومراضية ودوام مراقبته سبحانه.

والذى عليه المحققون أن الدلائل والحجج والبراهين يقوى بها الإيمان لا يزداد ، وأما زيادة الإيمان فإنما هى حق اليقين بعد عين اليقين، وفى هذا المقام يكون الله أقرب إلى العبد من حبل الوريد ، وهو مقام الشهود الذي يجعل العبد بعد طول الحيرة يسكن إلى الله تعالى بما أنزله الله سبحانه فى قلبه من السكينة ، وهو مقام الإحسان الذى عرفهε لسائل عندما سأله بقوله "ما الإحسان" فقال عليه الصلاة والسلام "الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" وهو مقام الاستحضار والمراقبة ، ومن بلغ حق اليقين إلى أن يعبد الله كأنه يراه فاز بالقرب والحضور ومن بلغ بالمراقبة مقاما به يتيقن أن الله يراه كان فى مقام كمال الاستحضار والمقام الأول أعلى والثاني عالي ، والآيات التى تزيد الإيمان آيات القرآن المبينة لكمال وجمال وجلال الله المقدس كآية الكرسي وسورة الإخلاص والآيات فى سورة الحديد وسورة الحشر وأمثالها ،وما بينه رسول اللهε وأفراد أصحابه وبينه الورثة

([1]) سورة الزمر آية : 23.

بعده مما يتعلق بالغيب المصون بيانا يلهمهم الله به ن فإن مثل هذا البيان ينوع الأفكار ويزكي النفوس ويجرد العقول من الهوى.

"وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" ومن دلائل زيادة الإيمان قبول أوامر الله بفرح ورضا كما قبل الصحابة أمر الله فى غنيمة بدر . التوكل هو تسليم الأمور كلها للقادر الحكيم ،وليس من التوكل تركا الأسباب فإن واضع الأسباب هو الله تعالى ، ومن ظن أن التوكل هو الاختلاء فى خلوة وترك ما أمر الله به حكم على نفسه بالجهل قالε لصاحب الدابة "أعقلها وتوكل" فالتوكل تسليم الأمور كلها لله مع قيام العبد بما أوجبه الله عليه ن العمل بالأسباب ، مر رسول اللهε على الصحابة وهم يذكرون لنخل فأشار إليهم أنهم لو تركوه لصلح ، فتركوه ففسد فقالε "أنتم أعلم بأمور دنياكم" فالواجب علينا ان نأخذ بالأسباب بجوارحنا وأن نتوكل على الله بقلوبنا.

وأن كثيرا من السالكين قد يصحبوا من لا علم له بطريق الله ولا بسنة رسولهε فيأمرهم بترك القيام بالأسباب مبينا لهم أن هذا من التوحيد مع أن ذلك ليس من التوحيد فى شئ ن فإذا شهد السالك أنوار القادر ترك الأسباب وفر منها خوفا من الشرك وما هو بشرك ، والحقيقة أن الله قادر حكيم فأظهر ما أظهره بقدرته ، وكما أنه قادر فهو حكيم فأمر بما أمر ونهى عما نهى بحكمته جل جلاله ، وأقام الأسباب ليتعرف بها السالكون فى القادر الحكيم . فمن نظر الحكمة وجهل القدرة فهو محجوب مغرور ، كما نرى عليه العلماء الآن فإنهم فهموا الحكمة وجهلوا القدرة فوقفوا عند الأسباب وقفة يشهدون فيها أن الأسباب هى الفاعلة المختارة ، فتراهم يحرصون على رضا أهل السلطة من مسلمين وكفار وقوفا عند الأسباب وأما من شهد القدرة ولم يشهد الحكمة فإنه تاه وشطح ، كما تاه بنو إسرائيل وكما شطح النصارى ، فتراهم يعيبون على العاملين بالأسباب ويأمرون الناس بترك الأسباب مع أن رسول اللهε دخل المدينة وفيها أصحاب الزراعات والتجار والصناع والعجزة فلم يعب على واحد منهم ما هو فيه ، وكان أبو بكر رضى الله عنه يغيب عن رسول اللهε نصف السنة فى تجارته إلى الشام وغيرها ، وكان عمر يغيب عنه فى زراعته الأيام والليالي ، وكان معه فى المسجد أهل الصفة وهم أكثر من سبعمائة ولم يعب على واحد منهم وهو صلي الله عليه وسلم سيد المتوكلين ، وقد أقامه الله عاملا لذاته فألزمه بالتفرغ لما أقامه فيه وضمن له رزقه سبحانه إلى أن أمر بالجهاد ، فكان له خمس الغنيمة وكان له نخل وزراعة بخيبر وسبعمائة فدان بتبوك يخرج منها قوت أهله فى كل سنة.

ومن قدر أن يقوم بالأسباب وتركها فهذا هو المخالف للسنة ، فالتوكل رعاية أن الفاعل المختار هو الله ، وأن العوالم أسباب أقامها الله تعالى ليشهد السالك قدرة الله وحكمته فى الأسباب التى وضعها مسبب الأسباب.

"وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ" هذه الآية من أكمل صفات المؤمنين وفيها تنبيه للصحابة الذين وعدهم رسول اللهε بما وعدهم به عندما أخبرنا الله بأن "الأنفال" أي الغنائم لله ورسوله فوضعوا ما كان بأيديهم توكلا على الوكيل واعتمادا على القادر الحكيم ، والآيات وأن كان لها سبب خاص إلا أنها عامة لجميع المسلمين فى كل زمان ومكان.

قوله تعالى : **"الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ"**(3).

هذه هي الصفة الرابعة التي يكون بها المؤمن مؤمنا ، وإقامة الصلاة أن تؤديها تامة بشروطها وفرائضها وسننها فى أوقاتها محافظة عليها أكثر مما تحافظ على صحتك التى هي أعز عزيز عليك ،

ولا يكون المصلي أقام الصلاة إلا إذا صلي بروحه وعقله ونفسه وحسه وجسمه ، وصلاة الروح الرغبة فى الله والرهبة منه لقوة اليقين حتى كأنه يرى الله تعالى فى صلاته ، وصلاة العقل التدبر فى الأقوال والحركات والسكنات مع رعاية الأدب مع الله تعالى والمحافظة على التشبه برسول الله فى صلاته ، وصلاة النفس هى صولة الخوف الذى يقهرها على المحافظة علي ملازمة النية طول الصلاة حتى لا تغرب النية عنها ، وصلاة الحس حفظ الجوارح المجترحة من الميل إلى المؤثرات الكونية فلا ينظر إلى القادم ولا المارة ، فأن نظر نظرة عرف بها من المار أو من يراه نقصت صلاته بقدر ما سرقه الشيطان منه بالتفاته ، وكذلك السمع والشم واللمس حتى يكون بين يدي الله كالميت فى قبره أو كالواقف على الصراط ليمر عليه ، فصلاة الجسم تأدية الحركات والسكنات مع الأدب لرسول الله ε حتى يطابق عمله بجسمه عمل رسول الله ε بقدر الاستطاعة ، ولم يأمرنا ربنا بالصلاة فى القرآن أبدا اللهم إلا فى قوله تعالى : "أن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا" وهذه الآية خبر من الله تعالى فيها ثبتت فرضية الصلاة وقد قال تعالى : "ويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون" أي الذين سهوا عن إقامتها بحدودها وآدابها ، أنظر كيف جعل الله تعالى الويل لمن سها عن صلاته لا في صلاته ، لأن من سها عنها تاركا لها فقد هدم الدين بسهوه عن إقامة عمده ، فالصلاة عماد الدين ، قال رسول الله ε تارك الصلاة ملعون وجاره أن رضى به فهو ملعون . ويقول الله تعالى فى هذا الحديث القدسي ، ولولا أني حكم عدل لقلت ومن يخرج من ظهره ملعون إلي يوم القيامة".

أما وقد بين الله لنا أهم علامة من علامات المنافقين بقوله تعالى **"وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا"**[1] ، وقال صلى الله عليه وسلم ف هذا المعني "علامة ما بيننا وبين المنافقين شهود صلاة العشاء والصبح فى جماعة" ذلك لأنها تثقل صلاتهما على المنافقين ، فإذا كان ترك العشاء والصبح فى جماعة علامة من علامات المنافقين ، فكيف يكون حال الساهين عن صلاتهم بتركها ، وركعة واحدة بنية صادقة كما بينت لك أعظم عند الله تعالى من صلاة الملائكة والجن والأرواح العالية ، لأن الإنسان خلقه الله بيديه وخلق العالم أجمع بيد واحدة فجميع العوالم نصف الإنسان ، قال تعالى **"مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ"**[2] مخاطبا إبليس عندما استكبر على السجود لآدم ، وقال تعالى "فسبحان الذي بيده ملكوت كل شئ" فالملكوت خلق بيد واحدة وقال تعالى : "تبارك الذى بيده الملك" فاليد التى خلقت الملكوت هى التى خلقت الملك والإنسان خلق باليدين ، ولهذا صارت صلاته فى حاجة إلى فادح المجاهدة ، وحديث رسول الله عن علامة ما بيننا وبين المنافقين يشير إلى النفاق العملي لا النفاق العلمي ، لأن النفاق كفر ، والنفاق العملي دليل على التساهل ما لم يكن ثم عذر شرعي يمنع المصلي من شهود العشاء والصبح فى جماعة.

"وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ" هذه الآية الشريفة وأن فهمها بعض المفسرين أنها خاصة بزكاة الأموال فهو فهم محدود ، ولكن الوسعة فى فهمها أولى ، فإن الذي رزق الله به عباده لا يحصر ففي المال زكاة المال ، وفيه أيضا بر الوالدين وصلة الرحم وإكرام الضيف ومساعدة الغريم وإعطاء السائل ، ومما رزقه الله للعبد العلم ، وواجب العلماء معلوم وهو النفقة منه أمر بالمعروف ونهيا عن المنكر ، والنصيحة النصوح بالحكمة وإرشاد العباد إلى الخير والقيام بالعمل به أمام العامة ليقتدوا به رعاية لجانب الله تعالى ، والعافية من رزق الله تعالى وعليها واجب وهو رد الظلم عن المظلوم وإعانة المحتاج والمضطر ورفع الأذى ، وما من نعمة ينعمها الله على المسلم إلا وهو مطالب أن ينفق منها

([1]) سورة النساء آية : 142.

(2) صورة ص آية : 75.

للمحتاجين إليها . كل ذلك بعد كفايته وكفاية من تجب عليه نفقته ، أما الزكاة التى فرضها الله فهى فى العين والنقد ، والواجب فيهما ربع العشر بعد تمام العام والملك وكمال النصاب ، وباقي أنواع الزكاة معلوم ومعروف ، ومن توسع فى إخراج زكاته وسع الله عليه.

قوله تعالى : **"أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ"**(4).

اسم الإشارة عائد إلى من ذكر الله صفاتهم فى الآيات السابقة أن هؤلاء الذين ذكر الله صفاتهم هم المصدقون بالله تعالى وبرسولهε "حقا" أي في الحقيقة ، وأن حقا مصدر أحق حقا ، وجائز أن تكون الآية تمت عند قوله : **"أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ"** فابتدأ الكلام بقوله **"حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ"**.

وهنا هل يجوز لمن جمله الله تعالى بكل الصفات أن يقول أنا مؤمن حقا أو يقول أنا مؤمن أن شاء الله . قال الحسن البصرى رضى الله عنه يلزم أن يقول المؤمن أنا مؤمن إنشاء الله واخذ بذلك الشافعى ، وقال غيره أن الاستثناء لا يجوز فى الإيمان ولا يجوز ولا ينبغي للمؤمن أن يشك فى إيمانه فيقول أنا مؤمن أن شاء الله ، وأخذ بذلك أبو حنيفة وللجمع بين المذهبين نقول أن الإيمان بنص هذه الآية هو اعتقاد وإقرار باللسان وعمل بالجوارح ، وإذا كان كذلك فقد يكون العبد واثقا بعقيدته مؤمن بإيمانه بالله ورسوله ، ولكنه لا يحكم أنه قام بالعبادة والمعاملة والأخلاق على الوجه الأكمل ، فيجب عليه أن يقول أنا مؤمن أن شاء الله وأما أن كان الإيمان هو التصديق بالله تعالى وبملائكته وبرسله وباليوم الآخر وبالقضاء والقدر خيره وشره فيستحسن أن يقول أنا مؤمن حقا بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره وأسأل الله تعالى أن يديم على نعمة الإيمان بفضله وإحسانه لأني أجهل العاقبة كما أسأله سبحانه وتعالى أن يتفضل على بنعمة العون والتوفيق على القيام بواجب هذا الإيمان الحقيقي ، وأعوذ به سبحانه من السلب بعد العطاء.

"لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ" أي للذين تقدم ذكرهم فى الآية درجات عند ربهم بقدر اجتهادهم فى طاعة الأمر وتجنب النهي ، قال بعض المفسرين "درجات" هى مراتب يرفعهم الله إليها وهي المقامات التى يخصهم الله بها بحسب أعمالهم ، فإن الجنة بفضل الله والمقامات فيها بعمل العبد بقولهε : "لن يدخل الجنة أحدكم بعمله" قالوا "ولا أنت يا رسول الله" قال "ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته" فدخول الجنة بفضل الله تعالى والمقامات فيها بعمل الإنسان "ومغفرة" أي سترا لذنوبهم وخطاياهم التى لا يتنزه عنها مؤمن ولو بلغ أعلي الدرجات فى الدنيا لأن العبد عاجز عن إدراك قدر ربه ، قال تعالى "وما قدروا الله حق قدره" فلا يتكبر على التوبة إنسان ولو كان نبي من أولي العزم ، فالواجب على كل مؤمن أن يتوب إلى الله فى كل يوم سبعين مرة على الأقل بل ويتوب من التوبة ، فإن أهل التحقيق يتوبون من توبتهم ، وذلك أن التائب إلم لم يتحقق أن معاصيه بتقدير الله ، وأن توبته منها بتقديره جل جلاله ونس ذلك لجهله فاعتقد أنه هو الذى أحدث الخطايا أنه هو الذى تاب بحوله وقوته كان شركا وكانت توبته كبيرة لذلك ، فالعارفون يتوبون من توبتهم لتطمئن قلوبهم فى مشاهد التوحيد العلية.

وليس بعارف من تاب من الخطايا ، لأن أهل القلوب يحفظهم الله من الخطايا كما عصم الأنبياء منها ولكنهم يتوبون من صلاتهم وصيامهم وقرباتهم وذكرهم خوفا من أن يلحظوا أنهم الذين ذكروا وصلوا وصاموا وذلك شرك خفي يحرم السالك المزيد من المعرفة ومن شهود اليقين وفوق ذلك شرك أخفي يمنع أهل اليقين من بلوغ مقام حق اليقين.

"وَرِزْقٌ كَرِيمٌ" هذه الآية الشريفة دلت على أن الدرجات فى الدنيا مقامات قرب من الأنس بالله ورؤية جماله العلي جل جلاله. لأن قوله تعالى "وزرق كريم" أي رزق من مأكل شهي ولباس بهي وفراش وطي وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون وجمال فى جسمه ، لأن الله نضره وأعده لمواجهته قدام

عرشه دليل ذلك ظاهر في قوله تعالى : "كريم" فإن الرزق الكريم هو الأفضل والأجمل والأكمل من كل رزق . رزق به الإنسان فى الدنيا من جاه وكنوز وذخائر وتصريف مطلق ، ويكون له فى الجنة أجمل وأكمل وأفضل من هذا كله.

قوله تعالى : **"كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ"**(5).

اختلف المفسرون فى "الكاف" الداخلة على هذه الآية هل هي متعلقة بقوله تعالى "يجادلونك" أو بقوله تعالى **"قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ"** أو المراد بها كفار قريش الذين أخرجوا رسول اللهε من مكة ، فإن كانت متعلقة بقوله "قل الأنفال لله والرسول" فيكون تأويلها كما أخرجك ربك من المدينة وبعض أصحابك يكرهون لقاء العدو فكان لقاء العدو خيرا لهم ، كذلك أمر الله تعالى بأن الأنفال له سبحانه ولرسولهε ، وأن كان يكره ذلك بعض أصحابك فهو كذلك خير لهم ، وأن علقنا الكاف بقوله "يجادلونك" يكون تأويلها كما أخرجك ربك من بيتك فى المدينة بالحق وبعض الصحابة يكرهون ذلك يجادلونك كارهين حكم الله تعالى فى الأنفال وهو خير لهم كما كان إخراجك من المدينة خيرا لهم.

قوله تعالى : **"يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ"**(6).

لأن الغيب مستور عنهم ، وقد أظهر الله لهم من الآيات والمعجزات ما كان يجب عليهم بعده أن يسلموا لهε تسليما ، شبه الله تعالى حالهم عند الدعوة إلى لقاء العدو كحال من يساقون إلى الموت وهم ينظرون إليه ، وفى هذه الآية من البيان الجلي ما تكاد النفوس تذهب حسرات إشفاقا وحزنا عندما تمثله حق تمثله.

قوله تعالى : **"وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ"**(7).

الخطاب لرسول اللهε ولأصحابه **"وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ"** أي يبشركم بوعده أن لكم النصرة والتأييد والظفر بإحدى الطائفتين أما بالعير وأما بالنفير ، واذكروا إذ تودون بعد وعد الله لكم الفوز بالعير لا بالفير **"غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ"** أي تودون العير بما فيه من الأموال والذخائر وعدم الحرب ، لأن العير كان يقودها أبو سفيان ومعه أربعون رجلا من قريش ولم يكن على الصحابة إلا أن يسوقوهم بدون عناء ، وكان ذلك ما يوده الصحابة رضوان الله عنهم وذات الشوكة ذات القوة والمنعة والشدة وهو نفير قريش ، وتفصيل غزوة بدر أن رسول اللهε بلغه أن عير قريش قادم من الشام يحمل مالها وزادها وميراثها ، فندب رسول اللهε الصحابة أن يخرجوا معه ليسوقوهم إلى المدينة فنشط بعضهم وتهاون آخرون ، فخرج معهε رجالات المهاجرين وأهل الهمة من الأنصار وكان جمعهم ثلثمائة وثلاثة عشر رجلا بقدر ما خرجوا مع طالوت وهم أهل بدر ، ولم يكونوا يظنون أنهم يلاقون حربا ولم يأخذوا خيلا ولا سلاحا إلا الضروري لأنهم خرجوا ليسوقوا العير ، فلما قربوا من بدر أمر رسول اللهε أن يبحث عن العير أين هي ، فأخبر أن العير ذهب إلى مكة من على ساحل البحر بعد أن علم أبو سفيان بقيام رسول اللهε للعير ، فلما علم بذلكε جمع أصحابه للشورى وقال ماذا يقول الناس وأخبرهم بوعد الله لهم أحدى الطائفتين ، فقال بعضهم نحن نريد العير فتغير لون رسول اللهε حتى قال بعض الصحابة أنك لم تخبرنا أنك تلقي بنا حربا حتى نستعد فقالε ماذا يقول الناس.

فقام المقداد بن الأسود فقال يا رسول الله "أنا صدقناك وأنا لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى أذهب أنت وربك فقاتلا أنا هنا قاعدون ، ولكنا نقول لك يا رسول الله أذهب أنت وربك فقاتلا أنا معكما مقاتلون والله يا رسول الله لو أمرتنا أن نخوض البحر لخضناه ، ولو أمرتنا أن تسير بنا على "برك الغماد" لسرنا خلفك "وبرك الغماد" هي عاصمة الحبشة ، فضحك رسول اللهε وقال ماذا يقول الناس.

فقام سعد بن معاذ سيد الأوس وقال "لعلك تريدنا يا رسول الله" فقال رسول اللهε "ومن الناس يا سعد" فقال "والله يا رسول الله أنا آمنا بالله وبك وصدقناك وأنا لنصبر في القتال ، وأنا والله يا رسول الله لا نتركك حتى نجندل بين يديك فامضي بنا كما أمرك ربك" ، فقال "أمضوا على بركة الله" للقاء العدو عدو الله وعدوكم فلما وصلوا إلى مكان بعيد من ماء بدر وجدوا أن عدوهم أبا جهل وجيشه من رجالات قريش قد سبقوهم إلى بئر بدر وعسكروا حوله ، فجلس رسول اللهε في مجلس الشورى يستشير صحابته وكان بعضهم يكره لقاء العدو كما أخبرنا الله عنهم بقوله تعالى **"كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ"** وكان نزول الصحابة رضى الله عنهم فى مكان قفر كثير الرمل وليس معهم ماء والعدو نزل على الماء وحال بينهم وبينه فحصل لهم الحزن الشديد حتى زاغت منهم الأبصار وظنوا بالله الظنون ، هنالك تداركهم الله تعالى بخفي لطفه فألقي عليهم النعاس أمنة منه ، وهى معجزة لرسول الله لأن الخائف لا ينام ، وأثناء نومهم هبت ريح شديدة فمزقت خيام قريش لأنهم كانوا فى مرتفع أعلي العين وثبتت خيام الصحابة لأنهم كانوا في حماية الجبل ، وهطلت الأمطار الغزيرة فأيقظت الصحابة الذين أسرعوا فرحين إلى فتح قنوات يسيل منها لماء إلى حوض فى منخفض جاف حتى امتلأ الحوض بالماء وفي نفس الوقت ردمت عين بدر برمال السيل والريح فصارت قريش بغير ماء ولا خيام مزعزة أقدامهم من ماء المطر وأرض الصحابة الرملية صارت جلدة متماسكة لنزول المطر عليها وبذلك تبدل الحال تماما ، ونشط الصحابة فى الاستعداد للقتال بتجهيز الميدان ، فنصبوا خيمة لرسول اللهε في مكان آمن بعيد عن مرمي النبال ، واستعدوا لملاقاة العدو فى همة معنوية وروح عالية وقد شجعهم رسول اللهε بقوله "من قتل فارسا فله سلبه ، ومن أسر مقاتلا فله متاعه" فأسرع شباب الصحابة إلى الإحاطة بالعدو من كل جانب ، وتقدم حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبي طالب إلى ملاقاة الأعداء فتشجع باقي الصحابة وبرزوا جميعا إلى الميدان ،وجلس رسول اللهε تحت قبة خيمته ومع أبا بكر رضى الله عنه ، فقامε يدعو ربه حتى قال اللهم أن تهلك تلك الصحبة فلن تعبد فى الأرض بعد اللهم وعدك الذى وعدتني ، وأستغرق فى دعائه صلوات الله عليه استغراقا كاد يصعق له الصديق رضى الله عنه لأنه لم يعهد تلك الحالة المحمدية من قبل فوقف خلف رسول الله وقال حسبك يا رسول الله أن الله وعدك النصر ووعده الحق ، وهنا توالت البشائر بانتصار الصحابة وهزيمة المشركين شر هزيمة.

"وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ" الحق من حيث هو فى الحقيقة ونفس الأمر هو حق لم يتغير ولن يتغير ، وتأويل هذه الآية أن الحق الذى هو رسول اللهε والمسلمون معه هو حق عند الله تعالى ، ولكنه أمام المشركين ليس بحق ، فأراد الله تعالى أن يظهر المؤمنين على المشركين يوم بدر يوم الجمعة يوم سبع عشرة من رمضان وهو يوم الفرقان ، وإظهار الله لرسولهε ومن معه إظهار للحق جليا أمام أعدائه سبحانه ، ولم يكن الحق باطلا حتى يجعله سبحانه حقا ، و **"بِكَلِمَاتِهِ"** أي بإرادته

وأمره **"وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ"** أي ويستأصل متأخريهم بعد استئصال من سبقوا بالقتل أو بالفرار والمشركون هم من عدلوا بالله غيره.

قوله تعالى : **"لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ"**(8).

تقدم أن الحق حق والباطل باطل ، وقوله **"لِيُحِقَّ الْحَقَّ"** ليست تكرارا لما تقدم ومعناها هنا أي ليظهر دينه وكتابه ويذل الكفر وأهله **"وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ"** الباطل باطل فى الحقيقة ونفس الأمر عند الله وعند العارفين به ، ولكن المشركين كانوا يعتقدون أن ما هم عليه من الكفر حقا وينصرونه ، فأبطله الله تعالى بنصرته رسولهε وأصحابه ، ولم يكن الحق باطلا فى وقت ما ولا الباطل حقا في وقت ما إلا عند أعداء الله الذين لا يعتد بهم في مثل هذا الأمر وهذه الآية الشريفة تهكم وتشنيع عليهم **"وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ"** والمجرمون هم الذين أجرموا بالنفاق أو بالكفر فاعتقدوا أن باطلهم حق.

قوله تعالى : **"إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ"**(9).

تأويل هذه الآية الشريفة أن الله تعالى يخاطب النبيε وأصحابه ، والأولى أن يكون المخاطب هو رسول اللهε فقط ، ومعني الآية تذكروا **"إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ"** وأتي بواو الجماعة هنا لتعظيمهε لاستغاثة بربه تعالى فى عريش خيمته عند أحتدام المعركة حين قام يدعو ربه ويسأله النصر الذى وعده **"فَاسْتَجَابَ لَكُمْ"** أي فبشرهم بالاستجابة لهم قائلا **"أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ"** أي أن الله تعالى بين له بشرى الاستجابة بإمدادهم بألف من الملائكة مردفين بكسر الدال أو بفتحها ، فبكسر الدال أنهم أتوا تابعين لكم ، وبفتح الدال أي أردفهم الله فأرسلهم متتابعين وراءكم يشدون أزركم.

قوله تعالى : **"وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"**(10).

وما جعل الله إمدادكم بالملائكة إلا بشرى لكم أيها المؤمنون ولتطمئن بها قلوبكم ، وقد تقدم الكلام على معنى ـ طمأنينة القلب ـ لأن طمأنينة القلب لا تكون إلا بعد عين اليقين لشهود سطوع نور الحجة وبيان المحجة . وقى قوله تعالى "بشرى" تأييد للقائلين بأن الملائكة لم تقاتل فى بدر ن والحقيقة أن الملائكة لم تقاتل فى بدر لأن الله تعالى لم يعلمهم كيفية قتال الناس مع الصحابة رضى الله عنهم ، وإلا فجبريل الذى رفع مدائن صالح وهود ولوط بطرف ريشة من جناحه فدكهم كيف يقاتل قريشا وهم أقل وأحقر من أن يقاتلهم ، اللهم إلا إذا أقام الله الملائكة على صور الأناسي ، وقد رأي بعد الصحابة أعمالا أدهشتهم ، فأخبروا بها رسول الله فقالε هذا من الملائكة ، فكان نزولهم على التأويل القائل من أن الملائكة لم تقاتل بل مجرد بشرى للصحابة بتأييد الله لهم وطمأنينة لقلوبهم بعد أن زاغت منهم الأبصار وبلغت قلوبهم الحناجر.

"وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ" أي وما نصركم على أعدائكم الذى فزتم به من غير أن يكون له سبب محسوس أمامكم ، لأن أعداءكم كثيروا العدد والعدد والتحمس لقتالكم ، وق سنحت لهم فرصة قلة عددكم وضعف قوتكم ، مع وفرة ذلك كله لديهم ، فكان مقتضى الحال أن تفروا منهم عند رؤيتكم لقوتهم فنصركم عليهم فى هذه الحالة بعد معجزة كبرى تقوم الحجة به أنه من عند الله تعالى ، وكيف لا وفى جيش أعدائكم مردة قريش وشجعانها وأفلاذ كبدها واعظم فرسانها ،ولكن الله حقق لكم النصر عليهم ، تحقيقا لوعده الذى وعد به رسوله وصفيه من خلقه فألقى فى قلوب المشركين الرعب ،

وطمئن قلوبكم وثبت أقدامكم بملائكته ، وفى هذه الآية رحيق مختوم لأهل القلوب تكمل به مشاهد التوحيد وتقوي به الثقة بالله تعالى ويكمل به التوكل عليه وتفويض الأمور كلها إليه جل جلاله.

"إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" أي أن الله تعالى قوى قهار ومنتقم جبار إذا أراد إبراز ما قدره جل جلاله من محو ما يكره وأظهار ما يحب ، فأنه سبحانه إذا أراد محو الكفر والظلم محا أهلها ، وإذا أراد أن يظهر دينه ويعليه أظهر أهله وأعلاهم ، وهذا معنى "عزيز حكيم" أي أنه يقدر الأشياء بحكمته ويبرزها بعزته وهو القاهر فوق عباده.

قوله تعالى : **"إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ"**(11).

قوله تعالى : **"إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ"**(12).

معنى هذه الآية الشريفة واذكروا إذ يغشيكم النعاس أي وقت أن يغشيكم النعاس بتشديد الشين وفى قراءة بتخفيف الشين إذ يغشاكم ، وعلي القراءة الأولى يكون النعاس مفعولا وعلى الثانية يكون فاعلا ، وهذه الآية معجزة أخرى وقد أنزلها الله تعالى تفصيلا لما حصل من الصحابة قبل لقاء العدو مما بينه الله تعالى قبل أن فإن الصحابة رضى الله عنهم عندما تحققوا من ذهاب أبي سفيان بالعير من جهة البحر ومن خروج النفير حتى قرب منهم حصل لهم الغم الشديد حتى بلغ مبلغا أخبرنا الله عنهم فى قوله تعالى : **"كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ"** والخائف لا يغشاه النعاس فكيف غشاهم النعاس مع ما هم فيه من شدة الخوف والجزع إلا ليجعله الله أمنة لهم وهى من المعجزات الباهرات ، و **"أَمَنَةً"** أي أمنا وآمانا من عدوكم وقال **"النُّعَاسَ"** ولم يقل النوم لأن القوم كانوا على حذر والنعاس كالطيف الخفيف ولم يستغرقهم نوم ولكن الله أذهب عنهم الحزن فغشاهم النعاس ، وفى قراءة ثالثة يغشاكم بضم الياء وتخفيف الشين.

"وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ" علمت مما تقدم أن رسول الله فى أرض كثيرة فيها كثبان الرمال حتى كان الجمل تهبط رجلاه فيه ، وماء بدر نزل عليه العدو وكان ذلك من موجبات خزن الصحابة الشديد حتى كان الرجل منهم يكون جنبا أو على غير وضوء ولا ماء عنده ، فاشتد بهم الحزن حتى غشاهم الله بالنعاس فأنزل الله "عليهم طما" من المطر فقاموا مسرعين فطهروا من الجنابة وتوضئوا وحفظوا الماء فى حوض صنعوه في الرمل ، وهذا معني قوله **"لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ"** أي وسوسته التى كان يلقيها فى قلوبكم بقوله "لو كان محمد نبيا ما حصل لكم أن نزل أعداؤكم على الماء ونزلتم فى أرض ذات رمل كثير ولا ماء لديكم" فكان ذلك مما يحزنهم فلما أنزل الله المطر ونزل السيل فقدت قريش الماء فالرمال ردم بئر بدر وصار الماء لدي رسول اللهε وأصحابه.

"وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ" أي يقوى الإيمان فيها فلا تتسرب إليها وسوسة الشيطان ، وهذا هو الحفظ الإلهي . **"وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ"** ظاهرها أن المطر لما أن انزله الله تعالى على الرمال ثبتت الأرض وقويت حتى ثبتت عليها أقدام الصحابة وأقدام الحيوانات ، وجائز أن يكون تثبت الأقدام يراد به التأييد من الله وعونه وتوفيقه سبحانه **"إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا"** أي وأذكر يا محمد إذ يوحي ربك إلى الملائكة بأمرهم بأن ينزلوا إليك وإلى أصحابك ليثبتوهم ، ولم تظهر الملائكة عند نزوله فى وقت الجهاد إلا للكافرين والمنافقين ولم تظهر للمؤمنين لأنهم لو رأوها لضعفت قواهم عن الجهاد اعتمادا على الملائكة ، ولم تقاتل الملائكة إلا في واقعة بدر فقط وحسب

قوله الفقهاء وبدليل ما يأتي فى آخر الآية وقوله **"سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ"** معلوم أن الله سبحانه يمد أهل الإيمان بما يلهمهم من كشف آيات الغيب وبيان أسرار آياته وشهود الدلائل الدالة على قدرته وحكمته وكمال توحيده ، وذلك يكون بواسطة الملك الذى يجعله ملازما لقلب المؤمن ، ويلقي فى قلوب الكفار الشكوك والريب والحسد والحقد والتفرقة وبغض الحق بواسطة الشيطان الذى يلازم القلب وهو قرين السوء من الجن كقرين السوء من الأنس ، فيلقى الله فى قلوب المشركين ما به تنزعج وترتعد وتتوقع الخيبة والندامة مما يجعلهم فى رعب شديد ،والرعب هنا أي الخوف الشديد من المؤمنين.

"فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ" "الفاء" هنا للفصيحة والمعني إذا علمتم ذلك فاضربوا ، فإن كان الخطاب للمؤمنين كانت الجملة استئنافا وتكون الملائكة إنما نزلوا للبشرى والتأييد لا للقتال ، وأن كان الخطاب للملائكة فالجملة مرتبطة بما قبلها وتكون المعني فاضربوا الرؤس لأنها فوق الأعناق ، أو تكون فاضربوا الأعناق أي فوق الأعناق نفسها فأمرهم الله بضرب أعلى الجسم فى مكان القتل **"وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ"** والبنان هو طرف الأصابع لأنه هو الذى ينتفع به الإنسان ، وجائز أن تكون المعني أضربوا كل الجسم لأنه أمر بضرب الأعلى والأسفل ، وجائز أن المشركين كانوا يضعون أكفهم على أعناقهم توقيا من الضرب فتقطع أعناقهم وأناملهم.

قوله تعالى : **"ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"**(13).

الإشارة عائدة إلى ما أخبرنا به عنهم من الانتقام منهم ، أي ذلك الانتقام بسبب أنهم **"شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ"** أي خالفوا الله ورسوله ومخالفة رسول الله هى مخالفة الله ، وقد عطف الرسول على اسمه الأعظم لأن طاعة الله تعالى من اتباع ما بينه لنا فى القرآن من العقيدة والعبادة والعاملة والأخلاق ، وطاعة الرسولε هي الاقتداء به فيما بينه لنا من كتاب الله وما عمله أمامنا وأمرنا به من سنته وآدابهε وأخلاقه ، لأنه بشر مثلنا ولكنه معصوم من أن يقول أو يعمل إلا ما يحبه الله تعالى ، ونحن مفروض علينا من الله تعالى أن نتبعه فيما يفصله لنا مما أجمل من أحكام العبادة ، وصيغة الأمر يقتضي الوجوب لذاتها ن فكما أوجب علينا طاعته سبحانه أوجب علينا طاعة الرسولε حتى جعل طاعة الرسولε هي عين طاعته ، قال تعالى : **"مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ"**[1].

"وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" أي من يخالف الله ورسوله فإن الله ذو عقاب شديد يجعله لمن يشاء فى الدنيا بالقتل أو الهزيمة وارق وضرب الجزية مع تأجيل أليم العذاب فى الآخرة ، وهذه الآية تهديد ووعيد لكفار قريش ، وخصوص السبب لا يمنع عموم الحكم لأن الحكم عام والسبب خاص.

قوله تعالى : **"ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ"**(14).

هذا خطاب لمشركي قريش والإشارة هنا لما أصابهم فى غزوة بدر أي ذلك الذل والمهانة والقتل والأسر انتقام الله منهم **"فَذُوقُوهُ"** أي تحملوه مكرهين رغم أنوفكم **"وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ"** أي وأن هذا الذى انتقم الله به منهم فى الدنيا قليل جدا لأن الله أعد لهم عذاب النار التى لا تطاق لقوة التهابها ولدوام الخلود فيها أعاذنا الله منها ومن كل عمل وقول يقربنا إليها ، وقد أمرنا أن نستعيذ بالله من النار عقب كل صلاة فنقول "اللهم أنا نعوذ بك من النار" وكيف ينساها المؤمن بعد أن توعد الله

([1]) سورة النساء آية : 80.

بها أهل الكفر والنفاق وأنا لا نآمن على أنفسنا من خفي النفاق ، أو من أخفى الشرك من غير أن نعلم أو نشعر.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ"**(15).

قوله تعالى : **"وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ"**(16).

هذه الآية الشريفة نزلت فى غزوة بدر فحسب ، لأنها كانت أول غزوة يقوم بها المؤمنون على قلة عددهم مع كثرة العدد عند المشركين ، وقد أخبرنا الله تعالى عن فرار الصحابة فى واقعة "احد وحنين" كما سيأتي ، وأنه تعالى عفا عنهم فدل ذلك على أن الحكم خص بغزوة بدر ، وقال بعضهم الحكم عام ولكن الله نسخه بما بينه فيما يأتي من الآيات ، "والزحف" هو مشى الصبي على فخذيه فى صغره ، وهو هنا كناية عن مشى الهوينا من الطائفتين المتحاربتين عند اللقاء.

"إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ" أي إذا حصل لقاؤكم جيش الكفار وكلاكما زاحفا نحو الآخر فلا تولوهم الأدبار ، أي فلا تفروا أمامهم فتلفتوا وجوهكم عنهم وتولوهم أدباركم **"وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ"** أي من يلوى وجهه عنهم فارا منهم **"إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ"** أي ومن يولهم منكم دبره من غير أن يكون "متحرفا لقتال" بأن يريهم أنه منهزم ثم يكر عليهم هو ومن تحرف معهم من المؤمنين وهى خدعة الحرب الشرعية وسياسة أهل الإيمان فى الجهاد **"أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ"** أي منضما إلى فئة من المؤمنين قريبة منه فى كمين للجيش أو فى بلد قريبة يغير بهم على العدو فإن المتحرف والمتحيز فى جهاد ، ومن ولى الأعداء دبره غير متحيز ولا متحرف فقد باء بغضب من الله عليه بسلب الإيمان منه وحرمانه من التوفيق والهداية ، ومن سلب مزيد الخير منه فى الدنيا بحرمانه من النصرة والتأييد والغنيمة والعزة ومن النعيم المقيم فى الدار الآخرة فى روضات الجنات واستبداله بالخلود فى نار جهنم بدليل قوله تعالى **"وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ"** "الواو" حرف عطف والجملة معطوفة على ما قبل "وبئس المصير" أي وساء المصير مصيره بما يلقاه من عذاب جسمه بنار جهنم ومن عذاب ضميره برؤية إخوانه بفردوس الله الأعلى، إذا لم يستشهد ، فإذا أستشهد فبما يراه فى إخوانه من الحياة الطيبة عند ربهم فى مقعد صدق.

قوله تعالى : **"فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"**(17).

سبب نزول هذه الآية أن بعض الصحابة رضى الله عنهم كان يقول الرجل منهم بعد نصرة الله لهم فى بدر أنا قتلت فلانا ن والآخر يقول وأنا قتلت فلانا وفلانا تحدثا بنعمة الله عليهم ، فأحب الله أن يرجعهم إلى مشاهد التوحيد العلية فقال **"فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ"** لأن الأحياء والأمانة والقتل من فعل الله تعالى ، ولكن الصحابة كانوا سببا فى الرمي بالنبل والطعن بالرمح والضرب السيف فقط ، والذى قتل القوم هو الله تعالى ، وهذا الخبر من الله تعالى على قدر مشاهدهم من التوحيد.

أما رسول اللهε الذى أقامه الله مقامه وختم به أنبياءه وجعل محبته سبحانه لمن اتبعه ، وجعل طاعتهε هي عين طاعته سبحانه وجعل من يبايعهε إنما يبايع الله . فإن الله جل جلاله أقام نفسه مقام حبيبه محمدε فقال ولكن الله رمي **"وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ"** فرسول الله هو الذى رمي ولكن الله نسب الرمي إلى نفسه سبحانه وسبب هذا الرمي أن جبريل قال يا محمد أرم الكفار بكف من التراب فأخذε كفا من التراب ورماهم به وهو يقول "شاهت الوجوه" فلم يبق رجل من الجيش إلا ودخل التراب فى عينيه

وحلقه فانهزموا جميعا ، ولما كان الرمي بإذن الله وكان الرامي رسول الله أسند الله الرمي إلى نفسه جل جلاله.

"وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" الله تعالى هو المبلي ويبلي بالخير وبالشر ،وبلاؤه سبحانه وتعالى واختباره وامتحانه لعباده ، وقد يبلي بالشر ويجعله خيرا ، وقد يبلي بالخير ويجعله شرا ، وقد يبلي بالخير ويجعله خيرا **"وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ"** أي ليختبر المؤمنين اختبارا حسنا بأن يخرجوا مع رسول الله من المدينة بقصد أن يسوقوا عير قريش القادم من الشام فيجدون النفير وهو ذات الشوكة فيحل بهم من الغم والحزن ما أخبرنا الله به عنهم ، فيكون هذا البلاء ـ مع أن ظاهرة شر ـ هو عين الخير والسعادة فى الدنيا والآخرة **"وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا"** أي اختبار منه لهم وهو اختبار حسن لهم فى الدنيا والآخرة.

وهذه الآية تجعل قلوب أهل الإيمان مطمئنة بالفوز وبالنجاة والنجاح ما داوموا فى علم لله تعالى مهما كانت فداحة هذا العمل وانتظار الفرج عبادة.

قال تعالى : "أين مع العسر يسرا" وقوله **"إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ"** أي أن الله سميع لأقوالكم وأقوالهم فيجازيكم بقدرها أن خيرا فيخر وأن شرا فش ، كما أنه عليم بأي شئ تكنه ضمائرهم من النوايا والهمم واللمم وغيرها فيجازي كل إنسان بما أضمر ونوي.

قوله تعالى : **"ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ"**(18).

أي ذلكم الفعل الذى قدره الله انتقاما من كفار قريش فى يوم بدر ليكون عاجل انتقام الله منهم ،ولم تقف عقوبتهم عند هذا الحد بل يجدد الله عليهم من المصائب ما به يوهن كيدهم بدليل قوله تعالى **"وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ"** بفتح همزة "أن" وبتخفيف الهاء في "موهن" وفى قراءة لإفادة تجديد الانتقام منهم فى كل أن.

قوله تعالى : **"إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ"**(19).

تأويل هذه الآية الشريفة أن الخطاب لكفار قريش **"إِنْ تَسْتَفْتِحُوا"** أي تطلبوا الفتح و "الفتح" فى اللغة هو القضاء والحكم ، فيقال فتح له أي قضى له وحكم له وفتح عليه قضى عليه وحكم عليه ، ومن جهل العامة أن يقول الرجل للآخر فتح الله عليك داعيا له وهو يدعو عليه ، قال الله تعالى مخبرا عن اليهود "أتحدثونهم بما فتح الله عليكم" أي حكم عليكم فقضي الأمر ، وقال تعال مخبرا عن حبيبه محمدε **"إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا"**[1] قوله تعالى **"إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ"** أي تطلبوا الحكم لكم على رسول اللهε وعلى أصحابه ، وسبب ذلك أن كفار قريش لما أرادوا الخروج إلى بدر تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا اللهم أنصر أهدي الطائفتين وأوصلهم للرحم ، وقيل أن أبا لهب يوم بدر دعا بهذا الدعاء فرد الله تعالى عليهم قائلا "أن تستفتحوا" أي تسألوني النصرة على محمدε بدعوى أنكم أهدى منه "فقد جاءكم الفتح" بالحكم ونصرهم عليكم.

"وأن" هنا شرطية "والفاء" رابطة لجوابها لأن فعلها مضارع وجوابها ماضي **"وَإِنْ تَنْتَهُوا"** عن محاربة رسولي وأصحابه **"فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ"** أي فانتهائكم عن الكفر والقتال خير لكم فى الدنيا بحفظ دمائكم وأموالكم وأولادكم وفى الآخرة بفوزكم بالنعيم المقيم إذا آمنتم بي وبرسولي ، **"وَإِنْ تَعُودُوا"** إلى محاربته وعداوته **"نَعُدْ"** أي يعجل الله تعالى النقمة منهم باعادتهم إلى ما يسخط الله تعالى ، وجائز

([1]) سورة الفتح آية : 1.

أن يكون الخطاب لرسول اللهε وأصحابه ، ويكون تأويل الآية "أن تستفتحوا" أي تستعينوا بالله "فقد جاءكم الفتح" أي النصر والتأييد من عند الله ، وذلك أن رسول اللهε يوم بدر وقف يدعو عندما رأي قريشا قائلا اللهم أن قريشا جاءت بخيلها وخيلائها ،اللهم وعدك الذى وعدتني ، اللهم أن تهلك صحابتي فلن تعبد بعد ، فأجابه الله تعالي بقوله : **"إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ" "وَإِنْ تَنْتَهُوا"** على هذا التأويل يكون الخطاب للصحابة الذين جادلوا فى الأنفال ، أي "وأن تعودوا" إلى المعارضة فى الغنائم "نعد" إلى الحكم عليكم فى الغنائم ، أحكاما أقصى من الأولى ، وأولي التأولين أن يكون الخطاب للمشركين أخذ بقوله تعالى **"وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ"** فإنه تهديد من الله تعالى **"وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا"** لأن قريشا كانت معتزة بكثرة عددها وعددها محتقرة جيش رسول اللهε فلم تغني عنهم كثرتهم **"وَلَوْ كَثُرَتْ"** ، "لو" هنا للمبالغة وليست على بابها اللغوي "وكثرت" أي عددا وعدة فأنها لا تغني عنهم أي لا تدفع عنهم قدر الله تعالى **"وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ"** أي معهم بنصرته وتأييده وقهر أعدائهم لأنهم صدقوه فيما جاءهم به رسول اللهε من عنده.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ"**(20).

تقدم الكلام على قوله و **"أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ"** وقد أنزلت فيما حصل من الاختلاف فى الغنائم كما بينا ،وهذه الآية الشريفة أنزلها الله تعالى ليؤدب المؤمنين الذين كان الرجل منهم يقول أنا قتلت فلانا والأخر يقول وأنا قتلت فلانا وفلانا من صناديد قريش فرحا بما أجراه الله على أديهم ، ولكنه مع حسن النية يشير إلى ضعف مراقبة مشاهد التوحيد العلية ، والواجب على كل مؤمن أن ينسب كل خير إلى الله ومن الله وينسب كل شر وسوء إلى نفسه أدبا مع الله كما فعل الجن عند خبر الله عنهم بقوله **"وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا"**[1] . أن الجن إذا أخبروا عن الشر أسندوا الفعل لنائب الفاعل وإذا ذكروا الخير أسندوه إلي ربنا جل جلاله والصحابة رضوان الله عليهم أولي من الجن فى هذا فكان الأدب أن يقولوا قتل الله فلانا وفلانا على يدي حتى يجمعوا بين التوحيد الكامل والوقوف عند الأسباب القائمة ، ولا تجد مؤمنا كامل المراقبة إلا وهو يلاحظ تلك المعاني ، فإذا قال البحر زاد أو المطر نزل أو أخرج النبات المطر يلاحظ فى ذلك أنها أسباب أقامها الله ذلك وهو الفاعل المختار جل جلاله.

وجائز أن تكون هذه الآية تدل أيضا على الاختلاف فى الأنفال لأن المجاهد يبذل نفسه وماله لإعلاء كلمة الله ، فإذا نصره الله وتفضل عليه بالغنيمة كان للنصر والغنيمة شأن عظيم عنده ، فإذا اختلفوا فى الأنفال دل ذلك على شوب فى الأخلاق فشدد الله عليهم بقول **"أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ"** أي لا تتوالوا فحذفت التاء للتخفيف "وأنتم تسمعون" أمره ونهيه ووعده ووعيده والقرآن المجيد.

وهنا إشارة يتذوقها أهل القلوب وهى قوله تعالى "أطيعوا الله ورسوله" وقوله "ولا تولوا عنه" فإن الكناية أي الضمير دلت على واحد والله ورسوله اثنان وقد تأولها بعضهم على قدر فهمه ولكن كيف يتأول قوله تعالى **"وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ"**[2] وأن كان فى قوله تعالى "من يطع الرسول فقد أطاع الله" ما يقرب فهم الآية إلا أن الآية راح طهور لأهل القلوب يلهمهم الله تعالى عند تلاوتها

([1]) سورة الجن آية : 10.

(2) سورة التوبة آية : 62.

مكنون علم فيها يضن به على غير أهله يتلقى من الأفواه إلى إلى الآذان إلى القلوب قال تعالى : **"إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا"**.

قوله تعالى : **"وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ"**(21).

ينهي الله تعالى الذين آمنوا من الذين اختلفوا فى الأنفال وكرهوا لقاء النفير بعد خروجهم للعير عن أن يكونوا كالمنافقين ، الذين سمعوا بآذان رؤوسهم من رسول اللهε الدعوة إلى الله تعالى بالقرآن والمعجزات الباهرات وقالوا سمعنا ، والحال أنهم سمعوا بآذان رؤوسهم ولم تصغ إليه قلوبهم ، فأنزلهم الله منزلة من لم يسمعوا عنادا وكفرا ومن هؤلاء من أرتدوا بعد إسلامهم من الذين سمعوا بآذان رؤوسهم ولم تسمع آذان قلوبهم ما جاء به رسول اللهε كما أخبرنا الله تعالى عنهم بقوله " **لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ**"[1] ومن هؤلاء اليهود الذين كانوا يكيدون لرسول اللهε فيدخلون عليه مصدقين مسلمين في أول النهار ويكفرون آخره . كما أخبرنا الله عنهم بقوله **"وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ"**[2] وفى هذه الآية يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بأن يجاهدوا أنفسهم ويقهروها تزكية لها لتدوم مراقبتها لله تعالى . قال تعالى **"قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا"**[3].

قوله تعالى : **"إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ"**(22).

هذه الآية الشريفة تشنيع من الله على المشركين به سبحانه وخبر منه عنهم وأكدها سبحانه بأن لتقوية الخبر و "شر" بمعني أخبث وأضل و "الدواب" كل ما يدب على الأرض "عند الله" أي فى الحقيقة ونفس الأمر "الصم البكم" لأن السمع والكلام عما الميزة التى تميز بها الإنسان فإن الأعمى قد يحصل من العلوم ما لا يحصله البصير ما دام الإنسان سميعا يمكنه أن يحصل العلم وما دام متكلما يمكنه أن يفيد ويستفيد ، وقد لا يفقد الأعمى إلا الألوان والأشكال والأبعاد وتلك ليست مما يزيد به علم ولا عقل ، وكم وجدنا من عميان بلغوا من الذكاء مبلغا تفوقوا به في العلوم ولم ينقصهم البصر من الكمالات الإنسانية شئ ، وسبب نزول هذه الآية بنو عبد الدار كانوا أشد النسا عداوة لرسول اللهε وهم الذين قالوا نحن صم بكم عن محمدε **"وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"**[4] فاستجاب الله دعاءهم فقتلهم جميعا فى يوم بدر إلا رجلين منهم وخصوص السبب لا يمنع من عموم الحكم.

"الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ" أي هم الذين لا يعقلون عن الله حججه ولا آياته لأن الله أفقدهم القابل عنه ، والسعيد منه منحه الله القابل وأوجده فى زمان الفيض المقدس من وجود رسول كريم أو عالم رباني ، والشقي من حرمه الله القابل وأوجده فى زمان الفيض المقدس فلم يقبل فخلد فى النار شرعا وعقلا، قال الله تعالى **"وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا"**.

قوله تعالى : **"وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ"**(23).

([1]) سورة المائدة آية : 41.

(2) سورة آل عمران آية : 72.

(3) سورة الشمس آية : 9.

([4]) سورة الأنفال آية : 32.

"وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ" معلوم أن شئ لم يعلمه الله معدوم وما علمه الله أوجده ، والمعني ولو علم الله أنه قدر فيهم خيرا فى الدنيا لاسمعهم سماع قبول وتعقل واعتبار وتسليم ، ولكنه سبحانه وتعالى لم يقدر لهم خيرا فى سابق علمه الأزلي ، وحيث أنه لم يقدر جل جلاله تقدير الخير لهم فى سابق علمه لم يسمعهم سماع فهم وأدراك وقبول ، فصارت هذه حقيقتهم الكائنة **"وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ"** بعد علمه أنهم ليسوا أهل للخير **"لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ"** أي لما قبلوا ولا سلموا ولا آمنوا . "ولو" هنا جاءت على غير مدلولها اللغوي ، فأنها لو كانت على مدلولها اللغوي لكانت المعني ما علم الله فيهم خيرا فما أسمعهم وما أسمعهم فما تولوا ، لأن الأصل فى "لو" نفى المثبت وإثبات المنفي.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ"**(24).

يظهر أن سبب نزول هذه الآية ما حصل من كره الصحابة لقاء النفير ، ومن الخلاف في الأنفال ، فأمرنا الله تعالى بالاستجابة له سبحانه ولرسولهε فى الشدة والرخاء ، وفى النشاط والكسل ، وفيما يلائم طباعنا ، وفيما يخالفها مما هو مكروه لها.

"إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ" به من الجهاد والبر والصلاة والزكاة والحج وغير ذلك من نوافل البر لأنه لو كان المقصود من **"اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ"** على الفرائض لكان تكرارا ، لأن الفرائض أمرنا الله بها بغير هذه الآية وقوله **"لِمَا يُحْيِيكُمْ"** حياة الإيمان لأن الكفر موت ، وحياة الطاعة لأن المعصية موت وحياة الجهاد لأن الشهيد يحيا حياة دائمة عند ربه يرزق ، وهنا إشارة خفية فى قوله تعالى **"إِذَا دَعَاكُمْ"** فأفرد الضمير مع أن المذكور قبله الذى يعود عليه هو الله ورسوله وقد سبق مثل ذلك فى قوله تعالى **"أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ" "وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ"** . هذه الآية أخوف آية على أهل الإيمان لأنهم إذا علموا أن الله يحول بين المرء وقلبه تمنوا أن يكونوا ترابا ، وكيف لا والله يحول بين الكافر والإيمان وبين المؤمن والكفر والخوف الأكبر عند الموت ،وقد يريد القلب أن ينطق بالشهادتين فلا يقوى الجسم على النطق بهما ، وقد يحول بين المرء وبين الطاعة ، وبينه وبين المعصية وبينه وبين التوحيد ، أعاذنا الله تعالى من سابقة السوء ، وبينه وبين الشيطان أن يكون له عليه سلطان ، وهنا يجب أن نسأل الله تعالى السلامة من سوء الخاتمة ، والآية تبين تقدير الإيمان فلا يفتخر المطيع على العاصي لأن الله يحول بين المرة وقلبه ، ومن علم أن ما جمله الله به من الإيمان والعلم والتقوى والحكمة هو فضل من الله لزم أعتاب الشكر والتواضع وشغلته عيوب نفسه عن عيوب الناس.

"وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" أي إلى ما وعد به أهل الإيمان وتوعد به أهل الكفر "تحشرون" أي يقهرون إلى الرجوع إلى ما سبق في علم الله ، لهم أو عليهم ، وفى الحشر إشارة إلى القهر والشدة كما فيه عطف ورحمة ، لأن لفظة تحشرون تدل على النقيضين فما هو خاص بالإيمان والنقصان يساق للحشر كما فى قوله تعالى **"يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا"**[1] ومن تحقق أن الله يحول بين المرء وقلبه ، كيف يطمئن إلى حالته الحاضرة ولا يخشى أن يحول الله بينه وبين الإيمان وبينه وبين التسليم والطاعة ، لأن القادر أن يحول بين المرء وقلبه لا يعجزه شئ.

قوله تعالى : **"وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"**(25).

([1]) سورة مريم آية : 85 – 86 .

هذه الآية الشريفة خطاب من الله تعالى موجه إلي قوم من الصحابة بأعيانهم وهم ـ على والزبير وطلحة وعثمان رضى الله عنهم ـ ، وأن كان الحكم فيها عاما ، قلا على والزبير لقد نزلت فينا هذه الآية وما كنا نعلم بذلك، وتلك الفتنة هي يوم الجمل حيث قام الزبير مع عائشة رضى الله عنهما لكتاب على "والفتنة" هى الاختبار والامتحان والتجربة . ومعني قوله تعلى **"لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً"** أي أنها تعم فيقع فى تلك الفتنة الظالم والبرئ وهذا أمر من الله تعالى أن المسلم يجب عليه أن يراقب الله حذرا من الفتنة حتى لا يفتح بها أبواب الشر على المسلمين ، ويكون المعني واتقوا فتنة ، أن اتقيتموها لا تصيبن الذين ظلموا ولا غيرهم وبذلك يكون فى الآية معني قوله تعالى **" يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ"**[1] **"وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ"** بعد أن بين الله تعالى أنه يحول بين المرء وقلبه يحذرنا سبحانه أننا إذا فتحنا أبواب فتنة قد تعم القائم بالفتنة وغيره ، وذلك لأن الله يعاقب من خالف أمره ونهيه بشدة وقهر وانتقام فأرهبوه دائما وراقبوه فى كل حركة وسكنة ، بل وفى كل طائف يطوف بقلوبكم.

قوله تعالى : **"وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"**(26).

أي تذكروا يا أهل الإيمان زمانكم الأول وقت أن كنتم قليلا فى مكة **"مُسْتَضْعَفُونَ"** كفار قريش فتخافون من المشركين أن يتخطفوكم فيضرونكم بالأذية والسباب "فآواكم" فى المدينة المنورة وأيدكم بنصرة يوم بدر فأنزل لكم الملائكة ترعب عدوكم **"وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ"** أي أعطاكم من الغنائم التي أحلها لكم ولم تكن لغيركم من أمم السابقين **"لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ"** أي لتسارعوا إلى العبادات والمعاملات والأخلاق التى أوجبها الله عليكم شكرا لنعماه سبحانه ، ولعل هنا بمعني اللام كما تقدم.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ"**(27).

الخيانة معلومة وهى ضد الأمانة ، يقال خان أى نقض أمانته ، ومقتضى العطف هنا التغاير ، فلله تعالى أمانة فى أعناقنا ، ولرسولهε أمانة أخرى ، ولكل مسلم أمانة عند أخيه المسلم ، وهى المعبر عنها "بأماناتكم" فأمانة الله تعالى عقد القلب على التوحيد واعتراف اللسان به والمسارعة إلى تنفيذ أمره واجتناب نهيه ، وأمانة رسول اللهε العمل بما بينه لنا مما بعثه الله به ، وأمانة ما بيننا وبين بعضنا هى مراعاة القرابة والجوار والضيافة والمعاملات والإخاء فى الله وفى هذه الآية أوجب الله علينا أن لا نخون أمانته ولا أمانة رسولهε ، ولا أمانة إخواننا المسلمين من بر الوالدين وإكرام الضيف والجار وإغاثة العاني الملهوف ومساعدة الغريم وإصلاح ذات البين ، وأمانة القرابة هى أمانة الوالدين وذى القربى والعناية بالأيتام والمساكين والسائلين والغارمين وفى الرقاب ، وقد نزلت هذه الآية فى حق "لبابة" رضى الله عنه ولكنها رغم خصوصيتها فهي عامة تشمل النهى عن كل أنواع الخيانات إلي يوم القيامة ، وهذه الآية نهي من الله أهل الإيمان عن خيانته وخيانة رسولهε وخيانة أماناتهم التى بينهم **"وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ"** أي والحال أنكم تعلمون تحريم الله لجميع أنواع الخيانة.

قوله تعالى : **"وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ"**(28).

كان أهل وأولاد أبي لبابة فى بني قريظة فحاباهم بوضع يده على حلقه وجرها إشارة إلى أن النزول على حكم سعد ذبح ، وكان أهل وأولاد حاطب بن أبي لفعة فى مكة فحابي قريشا برسالته ، ولم يكن ذلك نفاقا من أبي لبابة ولا من حاطب بل رحمة بأهله وأولاده فحصلت فتنتهما بسبب الأولاد ،

([1]) سورة النمل آية : 18.

والأموال ، وأولاد سببهم النكاح ، والحرص على المال سببه حب البقاء ، فخانوا الله ورسوله حرصا على الأهل والولد والمال ، فجذبهم الله إليه مبينا لهم أن النكاح الذى ينتج الأولاد متوفر فى الجنة بأشهى وألذ وأطيب من الدنيا ، وأن الأموال التى تحرصون عليها للبقاء وتستعينون بها على ضروریاتكم قد جعلت لكم في الجنة نعيما مقيما من مآكل شهية ومشارب هنية وحللا للجمال بهية وأساسا ورياشا من فرش وطيئة ومناظر جميلة وصفاء وهناء وأنس وسرور وبهجة وحبور.

"وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ" أي جزاء عظيم مكافأة لكم على إيثار محاب الله على شهواتكم فى الدنيا الفانية ، وأن المؤمن إذا آثر من ضمن الله لهم الرزق وقدر لهم ما سبق فى علمه على محاب الله ومراضية ، حكم على نفسه بنفض الإيمان وعدم التوكل على الله مع مخالفة الله ومشاقه رسول اللهε ولن ينال فى الدنيا إلا ما كتبه الله له.

قوله تعالى : **"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ"**(29).

تأويل هذه الآية يا أيها الذين صدقوا الله تعالى ورسولهε أن تتقوا معاصي الله تعالى ومخالفة نبيه **"يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا"** أي نورا يبين لكم محاب الله ومراضية بيانا يحفظكم به الله تعالى من تسلط إبليس عليكم ومن بواعث شرور النفس ودواعي خبث الطبع ، ولا يكون جعل الفرقان إلا للأنبياء عليهم الصلاة السلام ، فأنزلنا ربنا فى هذه الآية منزلة الأنبياء "وفرقانا" أي فارق بين الحق والباطل وبين الهدي والضلال ، وفاصلا بين ما تدعو إليه النفس الملكية والنفوس الإبليسية والحيوانية **"وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ"** وهي المعاصي التى توبق مرتكبيها فى النار ، ومعني تكفيرها أي سترها فى الدنيا **"وَيَغْفِرْ لَكُمْ"** أي يستر عليكم كبائركم التى ارتكبتموها فى الدنيا وقد توعد الله فاعلها بسوء العذاب فى الآخرة **"وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ"** أي صاحب الفضل الذى يتفضل به على من لا يستحقه ، فإن الإنسان لا حول له ولا قوة ، وتفضل الله تعالى عليه بالهداية والتوفيق ، والذكر ومجاهدة نفسه فى الدنيا ، وذلك فضل عظيم من الله تعالى.

قوله تعالى : **"وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ"**(30).

بعد أن أظهر الله منته على الصحابة مما كانوا به من القلة والضيق والشدة ، وما من به عليهم من النصرة فى بدر ، ومن الغنائم ومن تأيد إخوانهم الأنصار الذين آووهم ونصروهم وآثروهم على أنفسهم بقوله تعالى **"وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ"** الآية ، بين سبحانه منته على حبيبه محمدε بقوله **"وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ"** أي ليحبسوك ويضعون الأغلال فى يدك حتى تموت لأن "أثبته" أي شد وثاقة وحبسه "أو يقتلوك" أي جمعوا على قتلك ظلما "أو يخرجوك" بالنفي من مكة "ويمكرون" ومكرهم العزم على عمل الشر "ويمكر الله" ومكر الله بهم هو سرعة الانتقام منهم عدلا من حيث لا يعلمون ، وسبب مكر كفار قريش أنهم علموا بإسلام رجالا من يثرب وأنهم بايعوا محمداε على اتباعه ونصرته ففزعوا لذلك فزعا شديدا واجتمعوا فى دار الندوة يتشاورون فى أمره حتى انتهوا إلى رأي أجمعوا عليه ، وهو اختيار عشر رجل من الشباب فيترقبونه ليضربوه بسيوفهم ضربة رجل واحد فيضيع دمه بين القبائل فلا يقدر بني هاشم أن يطالبوا بدمه من جميع القبائل ، ولكن الله أنجاه ε من مكرهم حيث أمره بالهجرة إلى يثرب.

وهذه الآية مدنية وهى خبر عما حدث لرسول الله بمكة ومعلوم أن المكر من الناس هو قصد السوء ، والمكر من الله تعالى هو دفع السوء عن حبيبه من حيث لا يعلم الأعداء ، وجهلهم بقضاء الله وقدره يسمى مكرا **"وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ"** . وليس المراد بمكر الله فى هذه الآية أن مكر قريش فيه شئ من الخير ومكر الله هو الخير الحقيقي الذي لا ظلم فيه بل هو عدل بالنسبة للأعداء وفضل بالنسبة لرسول اللهε .

قوله تعالى : **"وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"**(31).

هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى عن قفل قلوب المشركين عن تعقل كلام الله تعالى ، وقائل هذا الكلام هو النفر بن الحارث ، وكان رجلا شاعرا تاجرا يسافر إلى بلاد الروم والفرس ويسمع أحاديثهم وآدابهم ويحفظها، ولما سمع آيات الله تعالى قال قد سمعنا وعلمنا مقدارها ولو شئنا لقلنا مثلها ، وكذب والله فإنه لم يسمعها ، إلا بآذان الحسد والجحود العنيد فدعاه حسده إلى أن يقول ما قال ، وقد تحداهم الله تعالى بقوله **"فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ"**[1] يعني ولو بأقصر سورة فحالوا فعجزوا ، ولو أن الجاهلين قالوا أنهم انصرفوا عند تحديهم عن أن يفعلوا فنجيبهم بأن الذى صرفهم عن هذا العمل هو الله تعالى، فثبت المطلوب وهو أنهم عجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله ، وكان النفر يجعهم فى الحرم ويقص عليهم أحاديث الروم والفرس فيصفقون على أيديهم ويصفرون صفيرا خفيا "المكاء" فى اللغة.

"إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ" هذه الآية برهان على عجزهم عن الإتيان بمثله ولكنهم قاتلهم الله تعالى مع عجزهم لم يزدادوا إلا عنادا وصدأ فأرادوا تنقيص آيات الله بقولهم "أن هذا إلا أساطير الأولين" أي أنه ما قاله وسطر عنهم فى كتبهم "والأساطير" جمع أسطورة وهى شعبذة الأولين وخرافاتهم ، وكذبوا فأن كتاب الله نور ساطع وحجة قاصمة للظهور ، وبيان للغيوب العالية والأسرار الخفية والحقائق التى بها الفوز بالسعادتين ، وبه أخبار الرسل والملوك ، وبه فضائل الأعمال وجميل الأخلاق وبالعمل به الفوز بالنعيم المقيم فى الآخر ، والسعادة فى تلك الدار الدنيا ، ولكن قبح الله الحسد والعناد فأنهما يدعوان إلى غمط الحق وكفران النعمة.

قوله تعالى : **"وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"**(32).

تأويل هذه الآية واذكروا يا محمد ما من الله به عليك الآن بعد ما كنت فيه بمكة إذ يقول بنو عبد الدار ـ فخذ من قريش ـ **"اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ"** يعني بعثت به محمدا حقا **"فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ"** وهذا الكلام كان فى مكة قبل الهجرة ، فأمهلهم الله تعالى لأنه صبور ، فلم ينزل عليهم الحجارة كما طلبوا ولكنه سبحانه بعد أمهالهم ، لم يهملهم ، وإنما أتاهم بالعذاب الأليم الذى طلبوه فى يوم بدر فقتلهم جميعا ، ومن فقه تلك الآيات تصور ما كان عليه رسول اللهε في مكة من حالة محزنة ومؤلمة مع ما كان يتحلى به من الخلق العظيم قال تعالى **"وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ"**[2] وقد تحمل رسول اللهε من قريش مالا تطيقه الجبال ، بل ما كان ببعضه تدعوا الرسل على أممهم فيهلكهم الله بالخسف وبالمسخ قدرة وخنازير وبالغرق ، كما فعل بقوم نوح ولوط وشعيب

([1]) سورة البقرة آية : 23.

([2]) سورة القلم آية : 4.

وصالح وهود وموسى عليهم السلام ، ورسول اللهε كلما أشتد عليه قريش بالأذى قال رب أهد قومي فأنهم لا يعلمون وقد مكثε ثلاثة عشر سنة يعاني تلك الشدائد وهو يدعوا الله لهم بالهداية.

قوله تعالى : **"وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ"**(33).

هذه الآية من الله تعالى توبيخا وتهديدا للقائلين بما أخبرنا الله به فى الآية السابقة ، وهي خبر من الله تعالى أنه سبحانه يمنع عن قريش العذاب مادام رسوله محمد قائم فيهم ، وذلك لحكم عليه يعلمها العلماء بالله تعالى ، منها أن الله بعثه رحمة للعالمين ولم يبعثه عليهم عذابا ونقمة ، ومنها أن الله تعالى جمله بأسمين من أسمائه الحسنى ، **"حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ"**[1] وقد نشر الله بهم الدين بعد إسلامهم فأبلوا إبلاء حسنا فى زمان أبي بكر وعمر وعثمان وعلى ، وصدق الله العظيم في قوله سبحانه **"وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ"**[2] **"وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ"** هذه الآية اختلف العلماء فى تأويلها فمنهم من قال أن الذين كانوا يستغفرون هم المستضعفون من المسلمين فى مكة فلم يعذبهم الله تعالى رحمة بالمسلمين الذين كانوا يستغفرون ، فإن المصيبة إذا نزلت عمت فأكرمهم الله برفع العذاب عنهم بأهل الإيمان المستغفرين.

قوله تعالى : **"وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ"**(34).

وما كان أي شأن لهم عند الله يمنعهم الله به من أن يعذبهم وهم مشركون مكذبون بآياته ،وكان إمهال الله لهم من أن يعجل لهم العذاب وجود رسولهε بين ظهرانيهم ، ثم وجود بعض المسلمين المستضعفين الذين يستغفرون الله بينهم ، أو أنه أجل العقوبة التى تستأصلهم لأنه قدر أن يسلم رجلا منه حتى ينفذ قدره سبحانه ويأتي العذاب لمستحقيه.

"وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ" هنا للحال "يصدون" أي يمنعون ويبعدون "عن المسجد الحرام" أي عن الحرم الشريف ، وسمي حراما لأن الله حرم فيه ما أحله فى غيره ، وقد صدوا رسول اللهε وأصحابه فى عمرة الحديبية حين خرجε فى رمضان معتمرا ومعه خلق كثير من أصحابه وبعد المفاوضة أباحوا لهε دخول مكة والمكث بها ثلاثة أيام من غير أن يظهر السلاح ، وذلك بعد جهد جهيد حتى كادت الدماء أن تسيل ولهذا سميت غزوة الحديبية.

"وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" أي أن كفار قريش ليسوا أولياء المسجد الحرام أي أهله وأنصاره وحصر سبحانه وتعالى ولاية المسجد الحرام فى المتقين بقوله تعالى أو أولياؤه إلا المتقون" "وأن" هنا نافية بمعني ما ، والآية أفادت القصر فنفي ولاية غير الاتقياء على المسجد الحرام مهما تسلط عليه غيرهم ، ومعني ولايته عمارته بتوحيد الله وعبادته والقيام بمناسكه ودفع الظلم والتظالم فيه وتطهيره من الشرك الظاهر والخفي ومن عمل الإلحاد فيه "ولكن أكثرهم لا يعلمون" هذه الآية الشريفة خبر من الله تعالى عن مشركي مكة أن أكثرهم كانوا جهلاء بالله تعالى وبرسولهε وبآياته ، وذلك لأن الآية مدنية وبها أثبت الله العلم للأقلية من أهل مكة وهم المسلمون المستضعفين ممن لم يستطيعوا الهجرة مع رسول اللهε ونفاه عن الأكثرية من المشركين والكافرين.

---

(1) سورة التوبة آية : 128.

(2) سورة الأنبياء آية : 107.

قوله تعالى : **"وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ"**(35).
قوله تعالى : **"وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ"**(35).
هذه الآية الشريفة حجة من الله على نفي ولاية قريش للبيت لأنهم كانوا يصلون عنده صلاة **"مُكَاءً وَتَصْدِيَةً"** أما المكاء فهو التصفيق على الكفين والصفير ، وأما التصدية فأنهم كانوا إذا دخل رسول اللهε يقرأ القرآن ، قام رجلان من بني عبد الدار عن يمينه ورجلان منهم على يساره وصفقوا وصفروا صدا للناس عن سماع قراءة رسول اللهε ، وكم آذوا رسول اللهε ، ومن كانت صلاتهم مكاء وتصدية فهم في صلاة ولكن لإبليس ، فإن الله تعالى أثبت لهم الصلاة وأخبرنا سبحانه أن صلاتهم مكاء وتصدية فبئست الصلاة صلاتهم ، وبذلك استحقوا عاجل عذاب الله بالأسر والقتل فى بدر ونفي عنهم ولاية المسجد الحرام.
"فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ" "الفاء" تقريعية "ذوقوا العذاب" أمر من الله تعالى يبين لنا أنه عذبهم فى الدنيا بالقتل والأسر والفدية ويعذبهم فى الآخرة بالخلود فى نار جهنم "بما كنتم تكفرون" أي بكفرهم وعدولهم بربهم سبحانه وتعالى.
قوله تعالى : **"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ"**(36).
بعد أن بين الله ما كان عليه مشركوا قريش من حيث الدين والأخلاق لنعلم ما يغضب الله ويوجب سخطه فنستعين به ليحفظنا من ملابسة مغاضبة ، شرع يبين لنا سبحانه فى هذه الآية ما كانوا عليه من حيث صرف الأموال ، وذلك أن قريشا لما قتل صناديدهم في يوم بدر ثاروا بقر الوحش وقالوا أنا نحبس أموال العير لنثار لأنفسنا من محمد لأنه وترنا ، واستصرخوا أحلافهم واحباشهم حتى جهز أبو سفيان من ماله ألفين من أحباش قريش وخرجوا مسرعين لحرب رسول اللهε ، وكان كل واحد منهم يبذل ماله فى سبيل الشيطان محاربا الله ورسولهε وهى غزوة أحد ، وقوله **"إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا"** أي كفار قريش **"يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ"** أي يبذلونها إسرافا ليصدوا عباد الله جل جلاله وليطفئوا نور الله بأفواهم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ، فكانت عاقبة غزوة أحد عليهم فإن الله هزمهم شر هزيمة وأن قالوا فيها ما لم يثلج صدورهم فإن العاقبة للمتقين ، وسيأتي تفصيل أجمال الغزوة عند المناسبة.
"والصد" هو المنع كما تقدم وكان الكفار فى غزوة أحد يريدون أن يستأصلوا المسلمين ولكن الله خيبهم وقوله **"عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ"** أي عما أنزله وجعله صراطا للسير عليه بيقين وإخلاص للوصول إلى الله تعالى والفوز بالنعيم المقيم في جوار الأخيار ، فلم يقبلوا عن الله ما أرسل به حبيبه محمدε وكفروا **"فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ"** "فسينفقونها" أي أنهم لن ينالوا خيرا بإنفاقها ، ثم بعد انفاقها تكون عليهم حسرة فى الدنيا بقتلهم وأخذ أموالهم غنيمة وأخذ من بقي منهم أسرى "ثم يغلبون" أي فى يوم القيامة يقهرهم الله تعالى لكفرهم وتكذيبهم بآيات الله تعالى ويحشرهم فى جهنم.
"وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ" مهما صلوا صلاتهم الباطلة وأنفقوا أموالهم فى وجوه النزوع إلى الباطل والعناء والكفر فأنهم في نار جهنم يسحبون على وجوههم مغلوبين بالقهر فلا تنفعهم صلاتهم الباطلة ولا تنفعهم ما داموا كفارا ، ومن لم يصل منهم ولم ينفق فإنه يحشر إلى جهنم مقهورا مغلوبا بكفره.
قوله تعالى : **"لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ"**(37).

أي ليميز الله الخبيث "والخبيث" هو الكفر وأهله أو النوع الخبيث وهم الكفار "من الطيب" أي النوع الطيب وهم المؤمنون ، فيدخل كل رجل من المؤمنين جنة خاصة به عرضها كعرض السماء والأرض فلا يكون مع المؤمن فى جنته إلا أهله أي زوجته وحوره وولدانه وله تلك الجنة التى عرضها السموات والأرض فيكف يكون طولها ، وأما الخبيث من الكفار فإن الله يضيق عليه مدخل النار حتى يكاد عظمه يتكسر من ضيق مدخله . **"وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ"** أي أن الله تعالى يجعل الخبيث بعد أن ميزه الطيب فيركم بعضه على بعض ليذوق العذاب قبل دخولهم جهنم ، ثم يقذف به فى نار جهنم ركاما أي متراكما بعضه على بعض فيجعله فى جهنم حتى يكون كأنه من نارها مع وجود الحس الذى يتألم به من ملامسة النار **"أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ"** أي الخبثاء الذين تقدم ذكرهم في الآية هم الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهليهم وأولادهم ، أعاذنا الله تعالى من الخبيث والخبائث.

قوله تعالى : **"قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ"**(38).

قل يا محمد للذين كفروا من قومك أن ينتهوا عن الكفر ويرجعون إلى الإسلام يغفر لهم ما قد سلف ، وهذه الآية الشريفة دليل على أن الكافر إذا أسلم لا يكلف بالعبادات المفروضة بأثر رجعي ولا بغيرها من باب أولي إذا أسلم وإنما تكليفه يكون من فاتحه إسلامه ، وعلى هذا التأويل فالكفار ليسوا مطالبين بفروع الشريعة ، لأنه ليس بعد الكفر ذنب ، وعذابهم متحقق لكفرهم، أعاذنا الله بوجهه من الكفر بعد الإيمان ، ومن الكبائر بعد التوبة.

"وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ" أي وأن يعودوا إلى الكفر بعد قيام الحجة ووضوح المحجة وبعد المعجزات الباهرات والآيات البينات "فقد مضت سنة الأولين" وهذه الآية تهديد ووعيد من الله تعالى لأهل الكفر به سبحانه ، وذلك لأن معني "فقد مضت سنة الأولين" أي جرت سنة الله في الأولين أن يهلك كل أمة كفرت برسولها ، فكفار قريش إذا كفروا بمحمدε وقعوا فيما وقع فيه الأولون من الهلاك والدمار فى الدنيا والعذاب الأليم فى الآخرة.

قوله تعالى : **"وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ"**(39).

بعد أن أمر الله تعالى نبيه محمدε أن يقول للمشركين أن تنتهوا عن الشرك يغفر لكم ، وأن تعودوا إلى التكذيب بآيات الله يعد الله عليكم بالانتقام منكم ، فلما عادوا أمر الله أهل الإيمان به أن يحاربوهم . بقوله تعالى "وقاتلوهم" أي وقاتلوا أهل الشرك بالله قتالا دائما حتى لا تكون فتنة "والفتنة" هنا هى الشرك والصد عن سبيله سبحانه ، ومعنى **"وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ"** أي أن الجهاد واجب على المسلمين ما استطاعوا حتى يقهر الله أهل الشرك ، فيستريح المسلمون من فتن الكفار التى تشغلهم عن ما هم مولون وجوهم شطره ولا راحة للمسلمين ما دام أهل الباطل أقوياء حتى يذلهم الله تعالى ، ويمكن للمسلمين فى الأرض ويظهرهم على أعدائهم أعداء الحق ، وأهل الكفر لا ينقطعون من الأرض أبدا ولكن الله إذا أظهر المسلمين عليهم خنثوا وذلوا لنا حتى نخدع بهم ، فالواجب علينا أن لا ننخدع بمعسول كلامهم ، وبمظاهر خضوعهم ، قال أمير المؤمنين عمر لا يخدعني كافر ولا يخدع مؤمنا مادام الأمر بالجهاد ف قوله تعالى : "وقاتلوهم" بعد بدر "حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله" فيكون المسلمين آمنين مؤيدين بروح من الله ، ولا يخالف المسلم إلا ذنبه ولا يرج إلا ربه ، وذلك لأن الدين إذا أظهره الله تعالى دان أهل الكفر لأحكامه وصاروا لنا بظاهرهم ونكل بواطنهم إلى الله

تعالى لأنه سبحانه بما يضمرون بصير أي مطلع عليهم خبير بأعمال بواطنهم وظواهرهم لا يخفي عليه سبحانه شئ وهو القادر على أن ينتقم منهم إذا هم نافقوا.

قوله تعالى : **"وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ"**(40).

أي أن أعرضوا ونأوا بجانبهم عن الحق إلى الباطل وأفسدوا فى الأرض بمعاداتكم والنزوع إلى ما يغضب الله عليهم وهموا لقتالكم **"فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ"** أي يتولاكم بنصره وتأييده ويعصمكم من الناس بإذلال أعدائكم انتقاما منهم ، وقوله **"نِعْمَ الْمَوْلَى"** أي نعم الولي الذي من والاه بولايته الخاصة وصار مولى له أعزه وأيده وأكرمه فى الدنيا والآخرة **"وَنِعْمَ النَّصِيرُ"** الذي ينصركم سبحانه بقوة قاهرة ويسحق أعداءكم سحق قوم عاد وثمود.

* * *

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء التاسع

ويليه بأذن الله الجزء العاشر

* * *